Produced with a Trial Version of PDF Annotator - www.PDFAnnotator.c

عواد علي

أبناء الماء

أبناء الماء

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
٢٠١٦/٥/٢٠٥٩

٨١٣,٩
خضير ، عواد علي
أبناء الماء/ عواد علي خضير .- عمـان: دار أزمنة للنشر
والتوزيع، ٢٠١٦.
(٢١٦) ص
ر.أ. ٢٠١٦/٥/٢٠٥٩
الواصفات : / القصص العربية/ / العصر الحديث

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفة ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي
دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

(ردمك) ISBN 978-9957-09-648-9

أبناء الماء : عواد علي (كاتب من العراق)

الطبعة الأولى : 2016

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق ©

أزمنة ®

أزمنة للنشر والتوزيع

تلفاكس : 5522544

ص.ب: 950252 عمّان 11195

شارع وادي صقرة ، عمارة الدوحة ، ط4

E.MailLinfo@azminah.com

Website:http://www.azminah.com

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

تصميم الغلاف : أزمنة

لوحة الغلاف : محمد العامري (الأردن)

الترتيب والإخراج الداخلي : أزمنة (إحسان الناطور)

تاريخ الصدور : أيار/ إبريل 2016

NOVEL | روايـــة

عواد علي

أبناء الماء

حين خطّطت لكتابة هذه الرواية كنت عازماً على حماية نفسي من إثم الكذب بأن أتوارى خلف أحداثها، وأترك للراوي سردها بضمير الغائب، ينسج خيوطها وفقاً لما تمليه عليه مخيّلته، ويحرك شخوصها كما يشاء، لا كما يشاؤون هم، موظّفاً مدوناتهم التي ادّعوا أنهم وثّقوا فيها أحداثاً عاشوها حقيقةً. لكني نزولاً عند رغبتهم غيّرت خطتي وتركتهم يسردون فصولها بأنفسهم. ولمّا أنهيت كتابتها عرضتها عليهم لقراءتها، فاعترض أربعة منهم على تلاعبي بالأحداث وعدم حياديتي، واشترطوا أن أنشر تنبيهاً بأسمائهم، فوافقت على الفور دون مناقشة، غير أني رددت لهم الصاع صاعين عندما تعمّدت إعادة كتابة الرواية من جديد، واستغنيت عن بعضهم نهائياً، وأوقفت بعضهم الآخر عن مواصلة السرد بلسانه في منتصف الطريق، جاعلاً الآخرين يحكون عنه، أو يشيرون إليه على نحو عرضي.

المؤلف

تنبيه

نحن: أفرام جبرائيل، تيريزا صليبا، سامان الجاف، ومهدي أنصاريان نلفت انتباه قرّاء هذه الرواية إلى أن أغلب ما وضعه مؤلفها على ألسنتنا قد حرّفه عن الأصول التي دوّناها له بطلب منه، وهي موثقة عندنا، ومن يرغب في الاطلاع عليها الاتصال بنا بواسطة البريد الإلكتروني، أو وسائل التواصل الاجتماعي لنزوّده بها، وإلاّ فنحن لا نتحمّل مسؤولية الفصول التي تحمل أسماءنا.

ميران

2006

«لا يوجد في داخلي سوى الصقيع».

دوّنت هذه العبارة في يومياتي وأنا في المرحلة الأولى من دراستي الجامعية. استعذبتها فظلّت عالقةً في ذهني، مدّةً طويلةً، مثل نغمة جميلة. كنت أظنها صورةً من قصيدة نثر، لكني حين علمت أنها للأم تيريزا انتابتني الحيرة، «كيف يصدر مثل هذا الكلام عن قدّيسة؟».

فيما بعد رحت أبحث عما يزيل حيرتي، فوقعت على معلومة تقول إن الفاتيكان كان يعلم، وهو يعلنها قدّيسةً، أنها مكثت عقوداً عديدةً تعاني من أزمة إيمان حادة، وسوّغ ذلك بأن جوانب الروح المظلمة شأن معروف عند كثير من القدّيسين!

لم اقتنع كثيراً بتلك المعلومة، خمّنت أن الأمر ربما يعود إلى ما في دخيلتها من حزن على آلام الفقراء والمرضى والمشرّدين في البلدان التي زارتها لأداء أعمال خيرية.

كان عمري تسع سنوات حين زارت بغداد عام 1991. يومها كنا نحتفل بعيد الخليقة (البروناية)، وهو، كما تقول كتبنا المقدّسة، ذكرى الخلق وتكوين عوالم النور والأرواح الأثيرية الأولى، حيث تُفتح فيه بوابات النور، وتنزل الملائكة والأرواح الطاهرة فيعمّ نورها الأرض.

رافقت أبي إلى المندي (المعبد) بسيارة عمي منادي، كنت حزيناً لأن أخي الكبير سبهان وعدني قبل العيد أن يشتري لي ملابس جديدةً فأخلف وعده. لم نجد مقاعد شاغرةً في القاعة الواسعة، بقينا واقفين على جانبي البوابة مع مَن حالهم من حالنا.

عندما رأيتها تدلف صحبة الـريشمّة (رئيس الطائفة)، وخلفهما عدد من أعضاء المجلس الروحاني الأعلى، خلتها ملاكاً هبط من السماء، فشعرت بما يشبه القشعريرة، إلاّ أن أبي سرعان ما بدّد وهمي حين همس في أذني قائلاً «إنها تيريزا أمّ الفقراء، من بنات خالتنا مريم، راهبة وقدّيسة شهيرة. سيمنحونها وسام الآس. هل تريد أن تسلّم عليها؟».

لم أفهم لحظتها ماذا يعني أبي بـ «بنات خالتنا مريم»، شعرت برهبة منعتني من الذهاب إليها لأني كنت الصبي الوحيد بين الحضور داخل المندي، غير أنها فاجأتني حينما لوّحت لي بيدها طالبةً مني أن أتقدّم صوبها.

كانت لحظةً شديدة الإرباك بالنسبة لي، الجميع أداروا رؤوسهم تجاهي، وسمعت الريشمّه يناديني قائلاً «تعال يا ولد سلّم على ضيفتنا الكبيرة».

قادني أبي إلى حيث تجلس على أريكة وثيرة، وما إن صرت أمامها حتى

سحبتني من يديّ واحتضنتني، ومسّدت شعري وتلفظت بكلمات لم أفهم منها شيئاً، فظننت أنها عبّرت بها عما في قلبها من محبة، إلاّ أن المترجم الذي كان يرافقها أخبر أبي فيما بعد بأنها قالت لي «أنت صبي وسيم يا بني، لكنك تبدو حزيناً». تُرى كيف عرفت أنني حزين؟ لا بدّ أنها كانت تمتلك فراسةً!

أتذكر ملامحها الآن كأنها تقف أمامي، كانت عجوزاً أكبر من جدّتي سمهر، قصيرة القامة، تغطي رأسها بملاءة بيضاء مطرّزة حوافها باللون الأزرق، وعيناها الذابلتان تستعرضان اللوحات المثبتة على جدران قاعة المندي: تسابيح مأخوذة من كتابنا المقدّس الكنزاربّا، وأخرى نحاسية مجسّمة لشخصيات مندائية في أوضاع طقسية مختلفة، وصليب الدرفش.

يوم وفاتها كنت في الصف الثالث المتوسط، سمعت النبأ في التلفزيون وأنا أتهيأ لامتحان البكلوريا، فدهمتني موجة حزن كأنما فقدت جدّتي التي كانت على وشك الموت.

أتذكّر أن الوقت كان عصراً حين ظهر شريط إخباري في التلفزيون يعلن وفاتها في «كالكوتا»عن عمر 97 عاماً إثر مرض عضال، فهرعت دامع العينين إلى محل أبي للمصوغات والحلي الذهبية والفضية. مشيت من محلتنا «العاقولية» إلى «خان الشابندر» عبر شارع «المتنبي» و«سوق السراي». كان الجو فيه لسعة برد خفيفة، والسماء ترسل قليلاً من الرذاذ. تعثرت مرتين أو ثلاث بعربات باعة السندويتشات والباقلاء (الفول)

واللفت المسلوق بالدبس المنتشرة في الشارع على مقربة من بسطات الكتب، التي شرع أصحابها يغطونها بقطع كبيرة من النايلون الشفاف لئلا يتلفها الرذاذ.

ظنّ أبي أول وهلة، وهو يلمحني من خلف الزجاج، أن أمراً طارئاً حدث في دارنا وإلاّ كيف أترك دراستي وآتي إليه؟ رمى عدة العمل من يده وأسرع إلى فتح الباب، الذي كان يغلقه في أغلب الأوقات ولا يفتحه لغير زبائنه المعروفين في تلك المرحلة العصيبة من الحصار البشع، حيث استفحلت السرقة بين المحتاجين وقلّ من يشتري الذهب والفضة.

أدخلني قِلِقاً وسألني:

ـ ما الذي جاء بك يا ولد، هل حدث لكم شيء؟

قلت بجرس مخنوق:

ـ ماتت أمّ الفقراء.

تنفّس الصعداء، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، تناول منشفةً من خلفه ورماها عليّ لأجفف شعري من قطرات المطر، وقال:

ـ ابني ميران، كلنا نموت حين نشيخ.

ثم أخرج علبة شكولاتة من درج طاولته وأعطاني قطعتين مطعمتين بالحليب، فدسستهما في حلقي وسألته مندهشاً:

ـ من أين لك هذه؟

قال:

ـ هدية من مسؤول في الحزب، صغتُ له خاتماً فريداً فأرسلها لي اليوم مع سائقه.

ـ إنها لذيذة جداً لم أذق مثلها من قبل.

ـ شكولاتة سويسرية، أوقفت الحكومة استيرادها بسبب الحصار.

ـ كيف إذن حصل عليها صاحبك؟

ـ إنه ليس مثلنا، مسؤول كبير ويستطيع أن يحصل على ما يريد من الخارج.

ـ ليتك كنت مسؤولاً مثله.

ـ أسكت ابني ودعنا في موضوع أم الفقراء.

لم أدرك طبعاً وقتها أن أبي كان يخشى مواصلة الحديث عن المسؤول الحزبي، فسكتُ برهةً ثم سألته.

ـ لماذا لستَ حزيناً على موتها؟

أجاب:

ـ اسمع ابني ميران، الحزن حرام عندنا والموت قدر البشر جميعاً. الحي الأزلي والملائكة وحدهم الخالدون، وعليك أن تفرح لأن الأمّ تيريزا تعيش خالدةً سعيدةً في آلما إد نهورا (عالم الأنوار) بعدما تحررت من سجن الجسد، ورجعت إلى مكانها السامي الذي هبطت منه.

خفّف كلام أبي من وطأة حزني عليها، ورحت أتخيلها في العالم السعيد، مأواها الأخير والأبدي مع النفوس الطيبة المطمئنة.

بعد وفاتها ببضع سنوات لحقت بها جدّتي سمهر، فأخذت صورتها تضمحل في ذاكرتي شيئاً فشيئاً حتى نسيتها مع انشغالي بالدراسة الجامعية، وحدوث كارثة الاحتلال التي أدت إلى تعرضنا للقتل والتهجير والخطف على يد إسلاميين متطرفين لحملنا على اعتناق الإسلام، رغم أننا فضّلنا، منذ قرون، الابتعاد عن الأحداث دفعاً للمخاطر التي قد تهددنا، وإيثاراً للنجاة.

لم تخطر في بالي إلاّ ذات يوم وأنا في مكتب مفوضية اللاجئين، رفقة صديق اسمه يوسف، بعمّان حين نادى الموظف على فتاة اسمها تيريزا. كان عمرها يبدو أصغر من عمري بقليل، هيفاء ذات وجه بلوري وعينين عسليّتين.

سألتها حين انتهت مقابلتها مع المسؤول الأممي:

ـ هل أنتِ من بغداد؟

قالت:

ـ لا، من الموصل.

ـ آشورية أم سريانية؟

ـ لا فرق، وأنت؟

ـ أنا مندائي من بغداد.

ـ ما معنى مندائي؟

ـ صابئي.

ـ أنتم مثلنا تعرضتم إلى الاضطهاد.

ـ ربما أكثر يا تيريزا، رغم أننا من أقدم الطوائف في العراق.

سألت بارتياب:

ـ من أين تعرف اسمي؟

قلت:

ـ من الموظف الذي ناداك، وقد ذكّرني باسم عزيز عليّ.

لم تكترث تيريزا لذلك، قالت:

ـ أتمنى لك حظاً سعيداً.

ـ هل يمكن أن نتعارف؟ من يدري ربما تجمعنا دولة لجوء واحدة.

ـ آسفة جداً أنا مخطوبة.

أرادت أن تغادر فاستوقفتها:

ـ لا تفهمي قصدي خطأً، يقول أبي إن المسيحيّين أولاد خالتنا.

التفتت إليّ وسألتني مستغربةً:

ـ كيف؟

ـ نحن نقدّس ابن خالة المسيح يوحنا المعمدان.

ردّت علي ببرود، متجاهلةً ما قلت:

ـ ربما نتعارف في المرة القادمة بحضور خطيبي.

قدّمت لها نفسي بطريقة احتفالية:

ـ اسمي ميران، ميران السبتي، وشاعر أيضاً.

ـ عاشت الأسامي.

جاءت المرة القادمة سريعاً، فبعد شهرين من المقابلة الثانية راجعنا أنا ويوسف مكتب المفوضية لنستفسر عن النتيجة وإذا بها قد سبقتنا إلى هناك. التقيناها في الباب الخارجي مشرقة الوجه، يزين شعرها مشبك فضي لامع على شكل وردة، بشرتني بظهور اسمي واسم يوسف ضمن قائمة المقبولين، وعرّفتنا إلى مرافقيها الأربعة: خطيبها أفرام وأمّها سارة وأخويها الأصغر منها بهنام وفاديا.

بعدئذ تشكّلت صداقة عائلية بيننا، خاصةً بعدما عمل أفرام معي في شركة منتجات غذائية لمستثمر عراقي. زرناهم أنا وأمي ملاك وأختي سولاف في شقتهم بجبل «اللويبدة»، وزارونا في دارنا بضاحية «النزهة». كانت منطقة سكناهم أكثر رقيّاً من منطقتنا الشعبية، ويفضلها المسيحيّون العراقيون على مناطق عمّان الأخرى لوجود أكثر من كنيسة فيها وقربها إلى وسط المدينة، أو البلد كما يسميه الأردنيون.

تعمّقت علاقتنا أكثر حينما شاء الحظ أن توافق كندا على توطيننا

جميعاً في عاصمتها، وغادرنا الأردن عام 2005 بطائرة ألمانية واحدة إلى مطار فرانكفورت، ومنه بطائرة كندية إلى أوتاوا مستقرّنا الأخير. هناك أقمنا أول الأمر في مجمع سكني واحد، يشبه الأقسام الداخلية، مع أكثر من عشر عوائل آسيوية وأفريقية لاجئة هرباً من الإبادات والكوارث، ثم انتقلنا نحن إلى السكن في حي «ألتا فزتا»، وأسرة تيريزا إلى «بانك ستريت»، وهما لا يبعدان كثيراً بعضهما عن بعض، لذا صارت أمّي تلتقي أمّها مرات عديدةً في الشهر أثناء التسوق من متجر «النمر العملاق» ذي الأسعار المخفضة، الذي يتوسط المنطقتين. أما يوسف فقد أجّر شقةً صغيرةً في «ساوثفيل».

ذات ليلة مثلجة من العام 2006 اتصلت بي تيريزا، هنأتني بالعيد الصغير (دهنا إد هنينا)، وطلبت مني أن أتصفح جريدة «ناشيونال بوست». لم تبيّن لي السبب، فظننت أن الجريدة نشرت إحدى قصائدي التي ترجمها صديق بارع في الترجمة وأرسلها لها، لكني حين فتحت موقع الجريدة ورحت اتصفحها فوجئت بمقالة عنوانها «إنسانيّة الأمّ تيريزا ضرب من ضروب الاحتيال»، يقول فيها كاتبها: «أجرى أكاديميون كنديون بحثاً جديداً يثبت أن الأم تيريزا هي أحد المشاهير الزائفين، فهي كانت مثلاً تؤمّن مساكن أرخص ممّا يجب للفقراء والمرضى على الرغم من توفّر ثروة من المال لديها، وعلى ذلك تكون قد بنت سمعتها الإنسانيّة ليس على أعمال خيرية حقاً وإنما أقرب ما تكون إلى الاحتيال.

وأوضح الباحثون أن الأم تريزا كانت ترى الجمال في معاناة المساكين، وكانت أكثر تفضيلاً للدعاء لهم بدلاً من توفير الرعاية الصحية اللازمة، وأنّ الفاتيكان تورّط في خدعة علاقات عامة حين أخفى قيامها باتصالات وتعاملات ماليّة مشبوهة لاختصار خمس سنوات من عمليات تجميل لسمعتها». والغريب أن كاتب المقالة أورد أسماء الباحثين وهم من جامعتي أوتاوا ومونتريال.

ـ أي افتراء هذا؟»، قلت مع نفسي، «هل يعقل أن يهينوا قدّيسةً بهذه الصفاقة وهي تعيش في عالم الأنوار؟ عليهم اللعنة، إن مصيرهم سيكون في آلمي دنهورا (عالم الظلام) على ما اقترفوه من إفك».

أغلقت موقع الجريدة وعدت إلى إكمال قصيدة نثر جديدة كنت قد بدأت بكتابتها، لكني لم أنهها، رغم قصرها، إلاّ بعد يومين، وعنونتها بـ«المندائي الحزين» إثر نوبة حزن تلبستني.

عندما قرأ صديقي المترجم سامان الجاف القصيدة اعترض على عنوانها قائلاً:

ـ كيف يستقيم مع طابعها السوريالي؟

أجبته ببساطة:

ـ لم لا يستقيم؟ أعتقد أن السوريالية توأم الحزن، وحزني أنا لا ينتهي.

ـ غريب أمرك.

ـ أبداً، هل رأيت صور المصورة البريطانية كريستي ميتشيل؟

ـ لا، ما بها؟

ـ حين ماتت والدتها بسرطان الدماغ لم تجد ملاذاً لها من حزنها وآلام حياتها سوى في تصوير لقطات سوريالية تفيض غرابةً وسحراً تجعل الأوجاع فناً قائماً، وتأخذك إلى عالم هي بطلته رفقة ألمها، فترى فيه ما يعبّر عن حزنك الخاص الذي يستقر بارداً كالثلج في قاع القلب. كانت ميتشيل في البداية تلتقط صوراً لكل ما يبدو محزناً مهدماً في الشوارع محاولةً أن تسقِط حالتها الشعورية على عدستها، والبحث عمّن هم مثلها يعيشون الحزن والألم، إلاّ أنها قلبت أخيراً العدسة لتصور نفسها.

ـ ألهذا صورتَ نفسك في القصيدة وأنت تواجه الموت؟

ـ بل أواجه نفسي.

ـ يبدو أنك قاسيت كثيراً فتأصّل الحزن في داخلك.

كانت علاقتي بسامان حديثة العهد، بيد أنها نَمتْ بسرعة وكأننا من جيل واحد، رغم أنه تخطّى الأربعين. تعرفت إليه صدفةً في مقر عمله مترجماً بمركز الهجرة الكاثوليكي، ثم التقينا في مقهى «تِم هورتن» بـ «بانك ستريت». بشرته بيضاء تشوبها حمرة، وعيناه تضطرمان بالذكاء والفطنة. جاء لاجئاً من العراق، عبر تركيا، مطلع التسعينات بعد نجاته من حملة الأنفال التي قُتل فيها عدد من أفراد أسرته في بلدة كلار. يتقن العربية والإنكليزية بطلاقة، مثلما يتقن لغته الكردية، لأنه درسها في الجامعة، وحصل على الماجستير متخصصاً في إشكاليات ترجمة الشعر.

يحب مهنته كثيراً، فهي كما قال تتيح له التعرّف إلى عشرات اللاجئين العراقيين والعرب، تشكّلت من خلالها علاقته مع فتاة كردية وأصبحت زوجته وأم أبنائه الثلاثة.

في لقائنا الثالث رافقني يوسف إلى المقهى. أخبرنا سامان، ونحن نستمع إلى موسيقى جميلة، بأنه ترجم مجموعة قصائد نسوية للشاعرة الكندية مارجريت أتوود، وأضاف بنوع من الإحساس بالزهو، أنه يبحث عن ناشر عربي يتكفّل بنشرها، فضحك يوسف وقال له:

ـ أنت محظوظ إن وجدت ناشراً عربياً ينشرها على نفقته.

ـ لكنها لمارجريت أتوود.

تناولت قطعة كرواسان صغيرة، وشربت بقايا قهوتي الممزوجة بالحليب، وقلت بلهجة قاطعة:

ـ كفّ أغلب الناشرين عن الاهتمام بالشعر.

أحسّ سامان بالضيق، وكأنه تلقى طعنةً، فقال:

ـ لماذا تكتب الشعر إذن؟

ألقيت نظرةً سريعةً على شجرة قيقب في الخارج يكسو الثلج أوراقها، وقلت:

ـ لأني أجد نفسي فيه.

رفع سامان نظارته الطبية عن عينيه، وطاف ببصره حول المكان، ثم قال:

ـ ما دام الأمر كذلك سأحاول ترجمة إحدى رواياتها.

تيريزا

2006

مكثنا في عمّان سنةً وثلاثة أشهر، ضيوفاً مؤقتين، في ظل غياب وضعية قانونية تنظم وجودنا كلاجئين في الأردن. ربما كنا محظوظين أكثر من غيرنا، رغم التحدّيات المعيشية التي واجهناها، فقد عثرنا على شقة صغيرة في جبل «اللويبدة» بإيجار شهري معقول تكفّل بتسديده خالي المقيم في أستراليا. واضطر أفرام إلى العمل في نفس الشركة التي يعمل فيها صديقنا ميران.

تركت في ذلك الجبل ذكريات كثيرةً مع صديقات عراقيات وأردنيات تعرفت إلى بعضهن في دارة الفنون، التي كنت أتردّد إليها وحدي أو رفقة أفرام يوم عطلته لحضور نشاطات فنية في قاعاتها أو في الهواء الطلق، وبعضهن الآخر في كنيسة «البشارة للروم الأرثوذكس». لكن تلك الذكريات لم تعوّض عن ذكرياتي الجميلة في مدينتي «أم الربيعين» وكر طفولتي.

حملت معي إلى كندا ملهمتي آلة الكمان التي أعشقها ولا أستطيع الاستغناء عنها. إنها بالنسبة لي مثلما هي بالنسبة للعازفة العبقرية ليزا باتياشفيلي، الشيء الوحيد الذي يجعلني أعيش في عالم من الخيال. وبها أحاول أن أعبّر عن أرق المشاعر والأحاسيس، بل حتى أقوى الانفعالات كالغضب واليأس. وكم تمنيت لو أني أمتلك موهبة التلحين، في الأقل كنت سألحّن قصيدةً لميران ردّاً لجميله في عرسي.

كان أبي هو الذي شجّعني على التخصص في هذه الآلة التي يحترمها كثيراً، رغم أنني عازفة ماهرة على البيانو، ويعتبرها سيدة آلات الأوركسترا لقدرتها العظيمة على التعبير. أما أستاذي في معهد الفنون فكثيراً ما ردّد على أسماعنا عبارته الأثيرة «نادراً ما نجد مؤلّفاً موسيقياً عظيماً لم يكتب أعمالاً لهذه الآلة أو أُسرتها». كان يحثنا دائماً على الاستماع إلى مقطوعات من العزف المنفرد لكبار العازفين المبدعين مثل التشيكي جوشوا بيل، والعراقي فالح حسن، والفلسطيني عبود عبد العال. إلاّ أن المجتمع الموصلّي بشكل عام كان عكس ذلك، تماماً، ينظر إلى الموسيقى من ثقب ضيق في إطار المعيب والمحرّم، رغم أنه أنتج، في عصور مختلفة، تراثاً موسيقياً ضخماً، وأنجب العبقري زرياب، جد النوابغ الموسيقيين: عثمان الموصلّي، وحنا بطرس، والأخوين منير وجميل بشير.

تزوجنا أنا وأفرام بعد شهرين من حصولنا على عمل في مطعم وبار «ريمسيون» ، أنا عازفة كمان وأفرام محاسباً، وهي وظيفة مناسبة له كونه

يحمل شهادةً جامعيةً في هذا الاختصاص. كان عملنا بدوام جزئي يبدأ في الساعة الرابعة عصراً وينتهي في التاسعة مساءً. وفي الصباح أخذنا نتعلم اللغة الإنكليزية رفقة ميران وعدد من العراقيين في مدرسة لا تبعد عن الشارع الذي نقيم فيه سوى عشر دقائق. لم يكن معنا يوسف كونه خريج أدب إنكليزي أساساً، وأفلح في أن يكون مراسلاً لجريدة عربية.

وضعونا في مرحلة متقدمة بعد اجتيازنا امتحان المحادثة والنحو بنجاح، تعرّفنا أثناءها إلى لاجئين من عدة قارات. أما أخواي بهنام وفاديا فقد ضموهما إلى الصفين الخامس والسادس الابتدائيين في مدرسة قريبة أيضاً. ولم تكن أمي بحاجة إلى تعلم اللغة لأنها كانت مدرّسة لغة إنكليزية متقاعدة.

قدّمت لنا أم ميران هدية الزواج عقداً ذهبياً، وتكفّل ابن عم لأمّي، كان يسكن في مونتريال، بنفقات العرس، وتحمّل ميران شراء فستان الزفاف بالأقساط من محل يمتلكه أحد أقربائه في مدينة «غاتينو» الملاصقة لأوتاوا، أما يوسف فذهبت هديته إلى أفرام، وهي بدلة بيضاء أنيقة مع ربطة بابيون سوداء.

قضينا شهر العسل في فندق جميل وهادئ قرب خليج «سانت لورانس» في مقاطعة «جزيرة الأمير إدوارد» على ساحل المحيط الأطلسي شرق كندا، وهي قِبلة عشاق الطبيعة البِكر، يُعرف سكانها الأوائل بـ«الميكماك»، ويعيش فيها مواطنون ينحدرون من عشرات المجاميع العرقية، ويجمعون

على تسميتها بـ مقاطعة «الحديقة»لكثرة مزارع الخضروات والزهور والحدائق فيها.

أذهلتنا التكوينات الصخرية الحمراء والمنحدرات التي تهيمن على مناظرها الطبيعية في الخط الساحلي. كان لزاماً علينا، ونحن نروم الوصول إليها، أن نستخدم العديد من الممرات الخشبية، التي قادتنا عبر الكثبان الرملية الضخمة إلى الساحل المغطى بالرمال البيضاء الناعمة. هناك وجدنا أنفسنا أمام مشهد ساحر لمياه زرقاء تعلوها من بعيد قوارب الصيد الصغيرة، التي تبدو أثناء المغيب كنجوم السِّماك أو سنابل القمح في يد العذراء.

أعجبتنا كثيراً عاصمة المقاطعة «شارلوت»، التي تُعدّ مسقط رأس الاتحاد الكندي، حيث شهدت أرضها، في القرن التاسع عشر، اجتماع عدد من الزعماء نتج عنه تشكيل الكونفدرالية.

يا لها من مدينة جميلة، اشتهيناها لمدننا العراقية الذاهبة إلى حتوفها بضجيج أعراس الدم. رغم صغرها بدت لنا ذات مزيج مثالي من الإثارة الحضرية، لا تعرف معنى لكراهية الآخر، تفتح فضاءاتها للجميع، للمختلفين والمتسامين على التابوات، تُشبعهم حياةً ونشوةً بلا ضغائن، بلا تمايز، وبلا أحقاد.

تلذذنا بتناول أطباق شهية من السمك والكركند والمحار في مطاعمها الأنيقة الخاصة بالمأكولات البحرية الطازجة، التي شبهها صاحب مكتبة

أمازيغي من المغرب، تعرفنا إليه هناك، بحوريات البحر. واستمتعنا كثيراً بارتياد مقاهيها ومقاصفها، والتسكع في شوارعها البديعة: «جورج» و«الملكة» و«المياه»، والتفرج على المهرجانات والفعاليات المجتمعية التي تُقام فيها، مقدِّمةً خيارات مبهجةً من الموسيقى والمشاهد الكوميدية والألعاب البهلوانية. وكذلك الجلوس تحت ظلال الأشجار في أرصفة شارع «فيكتوريا»، وزيارة مركزها الثقافي الذي يضم مئات الأعمال الفنية لفنان واحد هو روبرت هاريس صاحب اللوحة الشهيرة «آباء الكونفدرالية».

أهدانا صاحب المكتبة الأمازيغي محمد أشنا، مع مجموعة كتب تعليمية اشتريناها منه، روايةً كلاسيكيةً اسمها «آن في المرتفعات الخضراء» لأشهر كاتبة في الجزيرة تُدعى لوسي مود مونتغمري، تروي حكايةً مثيرةً للمشاعر عن طفلة يتيمة وتأثيرها الذي لا يقاوم على مجتمع زراعي هادئ، خلاصتها أن الأخوين «كتبيرت» أرادا تبني صبياً ليساعدهما في أعمال المزرعة، غير أن المشيئة الإلهية أرسلت لهما آن شيرلي، الطفلة الهزيلة ذات الشعر الأحمر، التي لا تتوقف عن الكلام أبداً. ورغم انزعاج الأخوين «كتبيرت» وحيرتهما فيما ينبغي لهما فعله بآن، وجدا أنهما يستلطفان دردشتها المتواصلة وخيالاتها الشاعرية، وسرعان ما شعرا بأنه أصبح من المتعذر عليهما تذكّر ما كانت عليه المرتفعات الخضراء دونها.

الغريب أن مونتغمري ظنت في البداية، حينما صدرت الرواية أول مرة

عام 1908، أنها ستعجب الفتيات المراهقات فقط، لكنّ المسنين وتلاميذ المدارس والمعاهد، والقادة الكبار في المناطق الأسترالية، والصبايا في الهند، والرهبان في الأديرة النائية، ورؤساء الوزراء في بريطانيا، والأشخاص ذوي الشعر الأحمر في مختلف أنحاء العالم، كاتبوها جميعهم، وحدثوها عن إعجابهم بالرواية.

حين عدنا إلى أوتاوا أجّرنا شقةً صغيرةً ذات غرفة نوم واحدة في نفس البناية التي يقيم فيها يوسف بـ«ساوثفيل» رفقة صديقته أيهان، شابة لطيفة جداً تكبرني ببضع سنوات، تتحدث العربية إلى جانب الإنكليزية، وعلى وشك أن تنهي دراستها الجامعية متخصصةً في الإعلام. أحببتها جداً ونَمتْ بيني وبينها صداقة على وجه السرعة، وصرت استعين بها أحياناً في واجباتي المدرسية.

عثرت في المكتبة العامة، القريبة من حيّنا، على جناح رائع للمؤلفات الموسيقية، سرعان ما سجّلت فيها، وأخذت أستعير، إلى جانب الكتب، أسطوانات وأقراصاً مدمجةً تحوي العديد من كونشيرتات الكمان الشهيرة لبيتهوفن، ومندلسون، وبروخ، وتشايكوفسكي، وباخ، وباغانيني وسترافنسكي، وهي قطع موسيقية مكونة من عزف لكمان مفرد أو أكثر، بمصاحبة مجموعة من الآلات هي في الأغلب أوركسترا. كنا نستمع إليها أنا وأفرام كل مساء قبل أن نأوي إلى الفراش، فنثمل بجرعات قليلة من نبيذ أونتاريو اللذيذ.

معلمتنا زهرة خان، الأفغانية الأصل، طلبت منا في نهاية الفصل الدراسي الأول أن نكتب قصص الاضطهاد التي تعرضنا لها في بلداننا، وأبلغتنا بأن إدارة المدرسة خصصت جوائز ثمينةً لأفضل ثلاث قصص مؤثرة وبليغة، فشرع كل واحد منا يكتب بطريقته الخاصة.

أعطتنا شهراً كاملاً لإنهائها، أنا كتبتها في أسبوعين وأفرام استغرق وقتاً أطول. وكان لا بدّ من أن تنقّحها أمّي، فرأت أن أسلوبي أكثر إبهاراً، وتوقعت أن أفوز بإحدى الجوائز، لكنّ المفاجأة كانت فوز ميران بالجائزة الأولى ومتعلمتين من الهند وجامايكا بالثانية والثالثة. وبذلك تمكن ميران من تسديد ثمن فستان عرسي كاملاً.

تولّت إدارة المدرسة نشر القصص في موقعها الإلكتروني. وحين قرأتُ، بفضول، القصة التي كتبها ميران وجدتها تستحق الفوز بجدارة فعلاً، ولِمَ لا وهو شاعر، وربما ساعده يوسف في كتابتها. بدت لي القصة صادمةً لما تضمنته من اعترافات جريئة حول علاقته بجارته الفتاة الشابة، ومأساويةً فيما يتعلق بنكبة أسرته، التي أيقظت في نفسي ذكرى اختطاف أبي، بيد أن هذا لا يعني أنها ستصدمكم بالضرورة، ولا أدري كم هي وفية للحقيقة. طبعاً لن أعرضها عليكم ما دام ميران يقاسمني بصوته سرد أحداث الرواية، بل سأتركه يفعلها بنفسه، وأسرد لكم قصتي أنا.

«كانت دارنا التي ورثتها أمي مبنيةً من الحجر، تقع في حي «الشفاء» وسط الموصل على الضفة الغربية لنهر دجلة، تبعد مسافةً قريبةً عن كنيستنا

«الطاهرة للسريان الأرثوذكس». ولدنا أنا وأخواي بهنام وفاديا وترعرعنا في تلك الدار، ودخلنا مدرسة الغسانية الابتدائية الكائنة في مبنى الكنيسة نفسه.

تخرّجتُ في قسم الموسيقى بمعهد الفنون الجميلة بعد بضعة أشهر من الاحتلال، بينما كان بهنام وفاديا لا يزالان آنذاك في الصفين الرابع والخامس، الأول يعدّ نفسه، بتأثير من أبي القس، ليصبح راهباً، لكن حماسته فترت عندما أصبح مراهقاً، واختار أن يكون مهندساً معمارياً. أما الثانية فتحلم بأن تكون طبيبةً.

كنا نحب حيّنا «الشفاء» كثيراً، ذلك الحي الذي اكتسب اسمه بسبب قربه من المستشفى الكبير. كان يُدعى سابقاً ميدان الجيش لأن الجيش العثماني كان يتدرّب ويعسكر فيه. إلى جهة الغرب منه حي يُدعى حي «الزنجيلي»، وإلى شماله حي «النجار»، وإلى جنوبه حي «المَشاهْدة»، وفي الجهة المقابلة له شرق النهر منطقة الغابات.

لم ينقضي ربيع العام 2004 بعد عندما بلغ أبي بولس صليبا الثالثة والخمسين من عمره. احتفلنا بعيد ميلاده عقب مرور ثلاثة أسابيع على الذكرى السنوية الأولى للاحتلال. ليلة الاحتفال، الذي اقتصر على أسرتنا الصغيرة وأفرام وأهله وبنات عمي يوحنا، كانت ماطرةً، والشارع يملأه الوحل، والماء ينساب من مزراب سطح الدار وحوافه إلى الحديقة، فيفسد خريره المزعج نغمات الموسيقى والأغاني المنبعثة من جهاز التسجيل.

كان أبي الابن الأكبر لأسرته، التي تنحدر من بلدة «برطلّة» في سهل نينوى، المعروفة بمنزلتها الرفيعة في تاريخ الكنيسة السريانية لما أنجبته من بطاركة ومطارنة ورهبان وأدباء عزّزوا مكانتها. درس مبادئ اللاهوت في معهد مار يوحنا الحبيب في الموصل، ثم أكمل دراسته العليا في الفلسفة واللاهوت بجامعة أثينا، حائزاً على درجة امتياز عن رسالته «الجوامع المشتركة بين المسيحيّين والمسلمين»، وسيمَ قسّاً عام 1988، ذلك العام الذي ربما سيبقى ماثلاً في ذاكرة العراقيين عقوداً طويلةً، لأن حرب الثمانية أعوام مع إيران انتهت في اليوم الثامن من شهره الثامن، شهر «آب اللهّاب» كما يصفونه. كان عمري آنذاك خمسة أعوام، إلاّ أنني أتذكر كيف خرج الناس إلى الشوارع والساحات العامة للاحتفال بالمناسبة السعيدة. كانوا يرقصون ويغنون، ويتراشقون بالماء، كالمجانين، مستخدمين الحقن البلاستيكية، وجهاً لوجه أو من خلال نوافذ السيارات.

في الأسبوع الذي تلا عيد ميلاده كان أبي راجعاً كعادته من قدّاس الأحد بعد انتهائه من إقامة الصلوات وتقديم الإرشاد الروحي لرعايا الكنيسة، حينما خطفه ثلاثة ملثمين مسلحين في وضح النهار، وأمام مرأى عشرات الناس في الحي.

كنا قد سبقناه أنا وأمي وفاديا بخطى واسعة وبشيءٍ من العجالة إلى محل الحاج يونس للمواد المنزلية لشراء بعض حاجات البيت، ومستلزمات عيد الفصح من كعك وملبّس ومعمول محشو بالجوز والتمر وبيض وأصباغ لزخرفته وتلوينه بألوان الأزهار.

لم يخطر في أذهاننا قط أن ذلك اليوم سيكون من أشد الأيام قسوةً ومرارةً على أسرتنا ونحن نتهيأ للتحرّر من خطايانا وآثامنا، ونرسم خطوط حياة خالية من العذابات، رغم المضايقات الشديدة التي بدأ يتعرض لها المسيحيّون في المدينة عقب الاحتلال.

أبلغَنا بهنام بالحادث. كان قد خرج من المدرسة وسار إلى جانب أبي، لكنه قبل وصولهما إلى الدار أراد أن يشتري بعض الحلوى من الدكان المجاور لنا، فظل أبي ينتظره في الخارج. فجأةً توقفت خلفه سيارة ذات دفع رباعي ونزل منها ثلاثة أشخاص شاهرين مسدساتهم ودفعوه إلى داخلها عنوةً وانطلقت مسرعةً.

هذا ما حكاه هرمز ابن جارنا لبهنام عندما خرج من الدكان، فجاء راكضاً إلى الدار وهو يصرخ كالملدوغ.

أمي المسكينة كاد يُغمى عليها، وملأ بكاؤنا الحاد الدار ووصل إلى أسماع الجيران، مسيحيّين ومسلمين، فهرعوا إلينا، نساءً ورجالاً، في دقائق معدودة، وأخذ بعضهم يخفف عنا وقع الصدمة، محاولاً إقناعنا بأن الخاطفين سيطلقون سراحه مقابل فدية، في حين شاطرَنا بعضم الآخر الحزن بصمت أو بكلمات تفيض بالأسى.

بعد مضي ساعتين على اختطافه رنّ الهاتف الأرضي، فإذا بشخص مجهول يكلمني بصوت غريب أقرب إلى شحيج بغل:

ـ هل أنت ابنته أم زوجته يا صليبية؟

أدركت على الفور أنه أحد خاطفي أبي، لكني بدلاً من أردّ عليه سألته:

ـ من أنت؟

زمجر قائلاً:

ـ أجيبي على سؤالي أولاً.

ـ ابنته، أريد أن أسمع صوته.

ـ إنه حي، دعيني أكلم أمك.

أعطيت السماعة لأمّي فغامرتْ بسؤاله، وفي داخلها نار تتلظى:

ـ كم تطلبون فديةً؟

أجابها بعصبية:

ـ نحن مجاهدون ولسنا لصوصاً كي نطلب فديةً.

ـ ماذا تبغون إذن؟

ـ نخيّركم بين أن تسلموا أو تغادروا، لا مكان للكفّار في دار الإسلام.

ـ يا ابني نحن مسيحيّون نؤمن بالله ولسنا كفّاراً.

ـ كل مَن لا يؤمن بالإسلام هو كافر، هل تفهمين؟

ـ نعم نعم، هل تخلون سبيله إن وافقنا؟

ـ على ماذا؟

ـ على المغادرة.

ـ نعم، هذا خيار زوجك أيضاً. سنمهلكم أسبوعاً واحداً، وبعده سيكون لنا حساب معكم إن لم ترحلوا.

ـ حسناً حسناً موافقون، أرجوك أطلقوا سراحه.

عاد أبي إلى الدار مع المغيب. احتضناه وقبّلناه بفرح ممزوج بالبكاء، وجاءنا بعض الجيران مرةً أخرى للاطمئنان عليه وتقديم التهنئة، فأمرَنا أن نضيّفهم بحلوى العيد مع القهوة. وقد دهشت من قوة عزيمته وابتسامته المشرقة، بينما تخيّلت أنه سيعود محبطاً ويائساً.

حين حلّ وقت العشاء فاجأنا جارنا الحاج ذنون بجلب صينية مملوءة بمقلوبة لحم بالرز البسمتي، وأبلغنا بأنه ذبح يومها خروفاً تيمناً بنجاح عملية جراحية أجريت لابنه. وربما كانت الصينية معدّة أساساً لأسرته، غير أنه آثر أن يقدمها لنا كرماً ومحبةً، وهو المشهود له في الحي بطيبته وخلقه العالي وتديّنه الأصيل، على العكس من أصحاب التديّن المتطرّف أو النفعي الذين يغلب عليهم البخل والجهل والأنانية وكراهية الآخرين.

في تلك الليلة، التي لم ننم فيها حتى الصباح، هيمن علينا شعوران متناقضان، غِبطتُنا برجوع أبي سالماً، وخوفنا مما سيؤول إليه مصيرنا إذا غادرنا الموصل. وأتذكر أن أبي شبّه يومها محنتنا بمحنة مسلمي الأندلس، بعد سقوط دولتهم في غرناطة، هؤلاء الذين خُيّروا بين أمرين لا ثالث لهما: إما التنصّر وإما الطرد إلى خارج إسبانيا.

ترك ذلك التشبيه أثراً بالغاً في نفسي، وجعلني أزداد إعجاباً باستقامة أبي

وإيمانه بحق الإنسان في التمسك بديانته التي جُبل عليها، رغم المحنة التي وضعتنا فيها عصابة التكفيريين الأنذال. وأي محنة؟ كيف كنا سنتمكن من مغادرة البلد أثناء المدة القصيرة التي حددوها لنا؟ كان علينا تسوية الكثير من الأمور المتعلقة بالبيت والكنيسة وترجمة شهاداتنا الدراسية وتصديقها قبل الرحيل.

ارتأى أبي أن نمكث أكثر من أسبوع كي نحلها، رغم اعتراض أمي وإلحاحها على عدم إعطائهم فرصةً لإلحاق الأذى به.

كانت محقةً في ذلك، فما إن دخلنا في الأسبوع الثاني حتى وقعت الكارثة حينما ألقت العصابة قنبلةً على مدخل الكنيسة لحظة خروج أبي منها، ففارق الحياة مع خمسة عشر رجلاً وامرأةً من رعيتها كانوا قد جاؤوا ليحصلوا على شهادات عماد أو زواج. يومها طغى عليّ إحساس بأن العالم فقد ألوانه، ولم أعد أرى إلاّ لوناً رمادياً ينتشر فوق الأشياء، ولولا أفرام لبقيت حتى الآن رهينة ذلك الإحساس.

سامان

2006

ذكّرتني قصائد ميران بصديق من بلدتي «كَلار» في كردستان اسمه ريبوار، كان شاعراً مهووساً بالشعراء الفرنسيين أبولونير وبريتون وإيلوار، ويتغنى بهذا الأخير أينما حلّ، لا لشيء إلاّ لأن إيقاع ريبوار يشبه إيقاع إيلوار، رغم علمه بأنه تخطّى فيما بعد النزعة السوريالية وأصبح شاعراً ملتزماً لُقب بشاعر المقاومة.

من شدة حب ريبوار لأولئك الشعراء، بعدما قرأ بضع قصائد لهم مترجمة إلى العربية والكردية، درس الفرنسية حتى يقرأ أشعارهم بلغتها. لكنه كان يختلف عن ميران في أن قصائده تتسم بالغموض الشديد والاستغراق في الهذيانات والجمل اللامترابطة، فهو يكتب بطريقة تلقائية تقليداً لشعرائه المفضلين وكأنه يكتب طلاسم. ولا زلت أتذكر مقطعاً من قصيدة له يقول:

«البعد اللامرئي للشفق يدخن الغليون

مثل سمكة تدخن لفافة تبغ

وقلبي المنفطر يسيل لعابه

كلما رأى حمامةً بجناحين من بلوط»

مرةً دُعي ريبوار إلى أمسية شعرية لإلقاء بعض قصائده، فصعد إلى المنصة مرتدياً قبعةً سوداء شبيهةً بقبعة إيلوار تضفي عليه مظهراً لا معقولاً، وبينما كان مستغرقاً في القراءة نهض رجل من بين الحاضرين معروف بسلاطة لسانه، وقاطعه بنبرة ساخرة:

ـ يا بنيّ، كان الأولى بك أن تجلب معك مترجماً لكي نفهم.

ضجّت القاعة كلها بالضحك، وردّ عليه ريبوار قائلاً:

ـ أنت رجل شبه أمي، هذا شعر سوريالي يصعب عليك فهمه.

ترك الرجل سليط اللسان مقعده واتجه إلى الباب الخارجي، وقبل أن يغادر التفت إلى ريبوار وصاح بأعلى صوته:

ـ نحن في كلار يا فهيم ولسنا في سوريا.

فتعالت قهقهات الحاضرين، واستوقفه أحدهم وقال له موضحاً:

ـ الشاعر يقصد أن شعره من النوع السوريالي ولا يقصد سوريا.

إلاّ أن ردّة فعل سليط اللسان كانت أسوأ من سابقتها، فقد رفع يده وهزها في الهواء قائلاً:

ـ خرا على هكذا شعر.

وغادر القاعة تاركاً الحاضرين يتخبّطون في هرج وفوضى عارمة. أما ريبوار فلم يشفع له شيء سوى الانصراف عن المنصة والخروج من الباب الجانبي شاعراً بالهزيمة.

رحم الله صديقي ريبوار، قُتل وهو شاب في حملة الأنفال العسكرية التي نفذها الجيش والمرتزقة الكرد «الجاش»(*) على منطقة «كرميان» في نيسان 1988.

كنت آنذاك أراجع مستشفى السليمانية لإصابتي بانفلاونزا حادة تعقدت لتغدو التهاباً في الرئة، ولم أستطع العودة إلى بلدتي إلاّ بعد انتهاء الهجوم الذي شمل مناطق واسعةً، وخلّف دماراً كبيراً في الريف، وقد فقدت فيه شخصياً ثلاثة من أفراد أسرتي: جدي وأبي وأختي الصغرى.

من بين أعز مَن فقدتهم أيضاً في ذلك الهجوم حبيبتي شيلان، ابنة الحادية والعشرين، ذات الوجه المضيء والفم المتفجر والعينين المشعتين. كانت فتاةً رومانسيةً ذات قلب نقي كأنه مصنوع من زبد، يخفق إذا مست الريح شعرها الطويل المنسدل على كتفيها. لم تنه دراستها الجامعية بعد، وتحلم بالسفر إلى جزر نائية محاطة بمياه كريستالية وسواحل خلابة تسير على رمالها الناعمة، أو تسترخي عليها مع الغروب مثل عروس البحر. لأجل ذلك كانت مولعةً بمشاهدة الأفلام التي تصور جزر هاواي

(*) لفظة كردية محرّفة عن اللفظة العربية «جحش» أو «جحوش»، وهم المرتزقة الذين كانوا يقاتلون إلى جانب الجيش في العراق ضد أبناء جلدتهم.

والكاريبي والموريا والمالديف، تحصل عليها من باعة أشرطة الفيديو، وتستمتع بها وتحدثني عنها بلهفة كما لو أنها قضت شطراً من حياتها في تلك الجزر وفقدتها فجأةً.

تربطني بشيلان صلة قرابة بعيدة. درّستها اللغة الإنكليزية حين كانت تتهيأ لامتحان البكلوريا، فانجذبت إليها وأحببتها، ونويت مرات عديدةً أن أتزوجها بعدما خطبتها من أهلها أيام دراستها في الجامعة، لكني كنت أؤجل ذلك حتى تتخرج وتحصل على وظيفة مناسبة تساعدنا في تحقيق مشاريع المستقبل.

لقد غمرني حبها بسعادة لا توصف، وكان نبضها، المكتنز بنبض الحياة، يتسلل إلى داخلي، وأشعر بأن قلبي يكاد يفلت من موضعه كلما أحتضنتها وقبّلتها.

عندما كنا نتجول في قلعة «شيروانة» القديمة بالبلدة، كانت تغني لي أحياناً، بصوتها الخافت الشجي، بعض الأغاني العذبة لكريم كابان، التي تسحرني إيقاعاتها الجبلية المتدفقة كشلال، خاصةً أغنيتي المفضلة «من ثنية الحجاب» للشاعر عبد الله كوران:

«كان الشارع خالياً وظليلاً، والوقت صباح

كنت أسير وأرنو في هالة من خيال

إلى الخضرة حولي، إلى السماء

إلى الجبال الشامخة، والبنيان الحديث والدنيا الجميلة

كنت أسير على مهل، صامتاً متئداً
جسدي خامل، والقلب مترع حنيناً وأملاً
وإذ رفعت رأسي فجأةً
بدت أمامي قامة كالملاك»

على ضفاف نهر «سيروان»(*)كانت لي أيام رائعة مع شيلان، خاصةً في الربيع حين كنا نجتمع عائلياً في رحلات شواء تحت ظلال الأشجار، وننزل إلى الماء لصيد السمك. لن تفارق ذاكرتي عبارة «سامان أحبك إلى الأبد» التي حفرتها ذات يوم على جذع شجرة حور، كعهد بينها وبيني تشهد عليه هذه الشجرة المعمّرة، وكأن ذاكرة الأنثى تشبهها إلى حد كبير.

لم تُقتل شيلان بسلاح المهاجمين، بل انتحرت عندما اغتصبها أحد المرتزقة «الجاش». أما أهلها وأقاربها فقد قُتل بعضهم، واعتُقل بعضهم الآخر، ونجا من استطاع الفرار أو الاختباء بين الأحراش وأشجار العليق الملاصقة للنهر، وكان أخوها الصبي فرهاد أحد الناجين، بيد أنه لم ينج بسبب فراره، بل في ظرف مختلف حكى لي تفاصيله حين التقيته صدفةً في مكتب مفوضية اللاجئين باسطنبول بعد مرور ثلاث سنوات على الهجوم. كان مع أسرة خالته الهاربة من «أربيل»، إبّان الهجرة المليونية من كردستان في آذار 1991، فعرفته على الفور، رغم أنه فقد الكثير من وزنه وأصبح نحيفاً وشاحباً.

(*) التسمية الكردية لنهر «ديالى» (بالعربية) أو «ديالاس» (بالسومرية).

حين احتضنته بكى بحرقة، فسحبته من يده وأخذته إلى الحمام وغسلت وجهه، ثم خرجنا إلى الشارع. كان الجو بارداً والريح تستثير الغبار، وثمة أناس كثيرون يحثون الخطى إلى بيوتهم أو إلى أعمالهم. وضعت ذراعي على كتفه وسرنا إلى متجر صغير في الجهة المقابلة لمبنى مكتب المفوضية. ظننت أنه جائع فابتعت له بضع قطع من الكوروسان وعلبة عصير برتقال وشكولاتة. لم يعجبني سلوك البائع ذي العينين الشريرتين، كان فضاً وجلفاً في تعامله مع الزبائن، الذين كانوا من مراجعي مكتب المفوضية، ويرتدي أغلبهم الزي الكردي، خاصةً النساء، فرميت أمامه ثمن ما ابتعته وخرجنا، وسمعته يردد بضع كلمات لم أفهمها، لكن بسبب الطريقة التي تلفظ بها خيّل إليّ أنه شتمني.

قال لي فرهاد ونحن نقطع الشارع عائدين إنه ليس جائعاً، بيد أني أحسست بخجل يكسو وجهه، فلاطفت شعره وألححت عليه أن يأكل. حين بدأ يلتهم الكوروسان بشهية شعرت في سريرتي بغبطة، وبدا لي أنه صار حيوياً وخفيف الحركة.

جلسنا منفردين في ركن منزوٍ من قاعة المفوضية الفسيحة، بعيداً عن شلّة عجائز كنّ يثرثرن بصوت عالٍ، وأخذت أحكي له عن رحلتي الشاقة من كلار إلى تركيا، بينما كان هو يصغي إليّ بانتباه وشفتاه الصغيرتان مضغوطتان، وعيناه الكستنائيتان تدمعان قليلاً كما لو أنه ذلك الصبي الباكي ذو القميص الأحمر في لوحة جيوفاني.

سألته كيف نجا من الموت ووصل إلى بيت خالته في «أربيل»، فأطرق رأسه وقال:

ـ يوم الهجوم أيقظتني أمي من النوم في الصباح الباكر لتقول لي إنها تشكو من ألم في بطنها وتريد الذهاب إلى المستوصف مع أبي. كنت أعرف أنها حامل وربما قرُب موعد ولادتها، وطلَبت من شيلان أن تعدّ لي الفطور قبل ذهابي إلى المدرسة. لا أتذكر لماذا كانت شيلان يومها في البيت وليس في الجامعة.

بينما كان أبي يهم بتشغيل السيارة سمعنا أصوات قصف وانفجارات متواصلة في الطرف الجنوبي من البلدة، وارتفعت سحب دخان أسود في السماء، وتعالى صراخ بعض نساء الجيران، فأدرك أبي أن الجيش هجم علينا، وصاح على الموجودين في البيت أن يركبوا السيارة فوراً. كنا ستة أشخاص، أنا وأمي وجدي وشيلان وعمتي الكبيرة وأحد أبناء خالتي، أما أخي نوزاد فكان من حسن الحظ يومها خارج كلار. أُصبنا كلنا بذعر شديد فحشرنا أنفسنا في السيارة بسرعة، عدا جدي الذي رفض ترك البيت، قائلاً: لم يبق من العمر ما يستحق الخوف عليه.

حين غادرنا البيت سمعت أبي يقول، وهو يقود السيارة بسرعة، إنه سيسلك الطريق المؤدية إلى «دربنديخان» فربما تكون هي الوحيدة الخالية من الخطر، فرد عليه ابن خالتي إنه يفضل التوجه إلى قرية «كهريز» في «خانقين»ـ كونها أقرب من «دربنديخان» ويمكن الاختباء في بساتينها، إلاّ أن أبي أصرّ على رأيه وواصل قيادة السيارة صوب الشمال.

عند بلوغنا حدود البلدة بدأنا نشاهد الطائرات وهي تلقي حمماً نارية على المنطقة فازددنا هلعاً خشية أن تستهدفنا، ولم تتمالك أمي نفسها فصاحت على أبي طالبةً منه أن ينحرف عن الطريق باتجاه الأحراش المحاذية للنهر، فامتثل لها وسلك طريقاً ترابيةً وعرةً، لكننا ما إن وصلنا ووضعنا أقدامنا على الأرض حتى لحقت بنا سيارتان كبيرتان محملتان بمجموعة من المسلحين «الجاش».

من أين جاءوا؟ هل كانوا يتعقبون أثرنا منذ خروجنا من كلار أم أن الأمر محض صدفة؟ لا أعرف.

شرعوا أولاً بإطلاق الرصاص في الهواء، ثم صوبوا بنادقهم علينا، وأمرَنا زعيمهم، وهو رجل طويل القامة قاتم البشرة تضطرم عيناه بالشر، أن نرفع أيدينا فوق رؤوسنا، فعرفه أبي على الفور، ونادى عليه باسمه هوشنك، واستحلفه بأن يتركنا وشأننا، إلاّ أن النذل ضحك وهو يتجه إلى شيلان، ووقف أمامها وأزاح غطاء رأسها وأخذ يحملق في وجهها كأنه يريد أن يلتهمها، ثم مسكها من ذراعها وقال مخاطباً أبي:

ـ هل تذكر أنك سخرت مني قبل سنة حين طلبت منك يدها للزواج؟

فأجابه أبي:

ـ لم أسخر منك، بل اعتذرت لأنها مخطوبة.

رفع هوشنك بندقيته وسار صوب أبي ولكزه بأخمسها على صدره، وزعق بصلف:

ـ لقد فضّلت الكلب سامان عليّ أنا ابن الآغا..

ثم استدار إلى شيلان وقال:

ـ لكني سأتزوجها الآن بطريقتي الخاصة.

وأشار إلى اثنين من «الجاش» أن يأخذاها إلى سيارته. حاولت شيلان أن تقاومهما إلاّ أنهما اقتاداها بعنف وربطا يديها خلف ظهرها وأدخلاها إلى السيارة، أما أبي وابن خالتي فقد فار الدم في رأسيهما وأرادا أن يهجما على هوشنك، لكن النذل عاجلهما برشقة رصاص فسقطا على وجهيهما قتيلين. لحظتها كنت ممسكاً بأمي مرتجفاً من الخوف، حابساً صراخي في حنجرتي مثل طير أطبق صياد على عنقه، فانهارت على ركبتيها وأخذت تلطم وجهها بكفيها وتهيل التراب على رأسها، ومثلها فعلت عمتي.

في تلك الأثناء دوى انفجار عند حافة النهر فدبّ الذعر في نفوس «الجاش»، وأسرع أحدهم إليّ، بإشارة من هوشنك، وجرّني من ذراعي صوب السيارة التي تقبع فيها شيلان، فانطلق صوتي بالصراخ والعويل، إلاّ أن «الجاش» دفعني إلى داخل السيارة بعنف، وهددني بالقتل إن لم أغلق فمي.

دفنت رأسي في حضن شيلان، فلم تنبس بكلمة، كان قلبها ينبض بشدة من الهلع، وشعرت بشيء حاد في أعماقي يوشك أن يمزقني، وتمنيت لو أني أمتلك قوةً خارقةً لأدمر هؤلاء الأوغاد.

ركب الحقير هوشنك في المقعد الأمامي وأمر السائق بالمضي، وبعد

قليل سمعت صوت رشقة رصاص أتى من الخلف، فتيقّنت من أن أتباعه الذين يقلّون السيارة الثانية قضوا على أمي وعمتي. أفلت رأسي من حضن شيلان دون وعي، والتفت بحركة خاطفة إلى الوراء، فلم أر شيئاً سوى زوبعة من الغبار.

قطعت السيارة مسرعةً مسافةً في الطريق الرئيسي ثم انحرفت إلى طريق متعرجة مملوءة بالأحجار والأشواك، فواتتني الجرأة وسألت «الجاش» الجالس إلى جانبي:

ـ إلى أين تأخذاننا؟

نهرني قائلاً:

ـ اغلق فمك.

ـ لماذا قتلتم أهلي، ألا تخافون الله؟

شدّني من أذني بقوة وزمجر مهدداً:

ـ إن لم تسكت سألقيك من النافذة.

أدار هوشنك رأسه وقال لتابعه:

ـ دعه يعوي.

انتهت الطريق بنا إلى سور واسع معزول يحيط بمنزل ذي طابقين، مشيّد بالحجر الأبيض ومرتفع عن الأرض ببضع درجات. توقفت السيارتان أمام بوابته المعدنية المشبكة، وترجّل أحد أفراد «الجاش» وأخرج مفتاحاً من جيبه وفتحه.

من بعيد تعالى نباح مجموعة كلاب داخل السور وكأن لصوصاً هجموا على المكان. وبينما دلفت السيارة التي كنا أنا وشيلان محتجزين فيها ظلت الثانية واقفةً في مكانها خارج السور.

كان كل شيء غامضاً بالنسبة لي، وصرت أتساءل في سري: «ماذا يريد هوشنك منا بالضبط؟ لماذا أنهى حياة أمي وأبي وقريبيّ فقط وقادنا نحن إلى هذا المكان المعزول؟ هل يريد أن يتزوج شيلان رغماً عنها كما قال؟ كيف ترضى به بعد كل ما فعله بأهلي؟».

توقفت الكلاب عن النباح مع بلوغ السيارة حافة الدرجات المؤدية إلى المنزل. أمر هوشنك «الجاش» الجالس جنب شيلان بأن يفك قيدها، ونزل من السيارة وارتقى الدرجات، غير آبه للدوي الذي يأتي من جهات قريبة، ولا لأزيز الطائرات في السماء. فتح له أحدهم الباب من الداخل فالتفت إلينا وأشار بإصبعه أن نتبعه. كانت صالة المنزل مضاءةً بثريا كبيرة ومملوءةً بأثاث وديكورات شبيهة بتلك التي نراها في الأفلام، وعلى طرفها الأيمن درج ذو سياج خشبي يصعد إلى الطابق العلوي، محفوفاً بأصص فخارية فيها نباتات مختلفة غير مزهرة.

كنت أشعر بجفاف ريقي، وبرعدة في فرائصي ممزوجة برغبة عارمة في نفسي تدعوني إلى أن أصرخ باسم أمي وأبي. وبدت شيلان وهي تقف جنبي مفزوعةً، وتكاد تختنق وقد امتلأت عيناها بالدموع.

أشار لنا هوشنك بالجلوس على أريكة جلدية فجلسنا طائعين، ودخل

إلى احدى الغرف، التي عرفت فيما بعد أنها مطبخ، وعاد حاملاً قدحاً وزجاجةً ذات لون أخضر حشيشي وارتقى الدرج إلى الطابق العلوي.

بعد دقائق دخل اثنان من «الجاش»، وقف أحدهم خلفي، وأخذ الثاني شيلان من يدها وقادها إلى حيث اختفى هوشنك. نهضت من مكاني محمّلاً بثورة غضبي وأردت أن ألحق بهما، لكن «الجاش» الواقف خلفي مسكني من عنقي وأجلسني عنوةً، وأمر الرجل الذي فتح الباب أن يجلب لي ماءً. أسرع الرجل وأتى بكأس ماء شربتها وجلست أنتظر. كان قلبي لا يزال يرتعد، وعجزي عن فعل شيء من أجل شيلان يعذبني.

بعد نصف ساعة تقريباً سمعت جلبةً وطرقات في الأعلى، تلتها صرخات متتالية أطلقتها شيلان، فخمّنت أن الوحش هوشنك ربما طرحها أرضاً وأخذ يضربها ويعذبها عقاباً لرفضها الزواج منه، ثم سمعته يضحك ضحكات صاخبةً يتردد صداها في أرجاء المنزل. تمنيت مرةً أخرى لو أني أمتلك قوةً خارقةً لأنقذ شيلان من مخالبه.

فجأةً هبطت شيلان الدرج حافيةً منهارةً وهي تنشج بصوت خافت. كان ثوبها ممزقاً وعليه بقع دم وشعرها مفتوحاً ومشعثاً، فوثبت إليها واحتضنتها وأخذت أبكي، ولاحظت العرق المتصبّب من رأسها. حاولت أن أسحبها إلى الأريكة التي كنت أجلس عليها، لكنها شدّتني إليها وقبّلتني من وجنتي ورأسي عدة مرات، ثم اقتحمت الغرفة التي جلب منها هوشنك الزجاجة وأغلقت الباب وراءها. ظننت أنها كانت

عطشى وراحت تبحث عن الماء، لكني سمعت بعد لحظات صوت ارتطام شيء ما بأرضية المطبخ.

انتاب فرهاد حزن مباغت، فتوقف عن الكلام ونكّس رأسه إلى صدره ممسكاً إياه بكفيه، واغرورقت عيناه بالدموع. انتظرت بعض الوقت حتى تنتهي نوبة حزنه، ثم سألته:

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

قال فرهاد بألم:

ـ كسر «الجاش» الباب ودخلتُ معهم، فرأيت شيلان ملقيةً على الأرض وحولها دم غزير وسكين.

ـ وأنت؟

ـ بعدما حملوا جثتها إلى مكان مجهول أبقوني في المنزل تحت الحراسة أربعة أيام، وحين اشتد الهجوم أخذوني معهم إلى كركوك، لكن السيطرة العسكرية احتجزتني عندما عرفت أنني لا أمتّ لهم بصلة قرابة. وعقب ساعات أطلقوا سراحي وسمحوا لي بالدخول إلى المدينة مع سائق سيارة من أهل «عينكاوا». كان الرجل طيباً وشهماً، وتعاطف معي لما حكيت له قصتي، ولم يتركني حتى أوصلني إلى بيت خالتي في «أربيل».

ميران

2006

«أنا من محلة شعبية في الرصافة ببغداد اسمها «العاقولية». ذو سحنة حنطية، وقوام متوسط الطول. نشأت في زقاق ضيّق من أزقتها التي تضجّ طوال النهار بالنسوة والأطفال. ذكرها مؤرخ إنكليزي اسمه فيليكس جونسون، قائلاً إنها محلة كبيرة عُرفت بهذا الاسم نسبةً إلى جامع «العاقولي» الذي يضم قبر الشيخ جمال الدين ابن الشيخ العاقولي. وفيها أيضاً ولدت رائدة الشعر الحر في العراق نازك الملائكة واختها الكاتبة إحسان».

بهذه الفقرة بدأت قصتي، التي اعتمدت في كتابتها على يومياتي، ثم واصلت سردها:

«في ضحى يوم ربيعي استيقظت بمزاج عكر، حدست أنه سيكون يوم شؤم، يوماً من تلك الأيام التي يُفضّل المرء ألاّ يغادر فيها الفراش لأن كل شيء يأتي وخيماً. لكن ماذا كان بوسعي أن أفعل وهو يوم عيد التعميد الذهبي، الذي تعمّد فيه أبونا آدم ومن بعده أنبياؤنا شيت وسام ويحيى.

أيقظني صوت بائع متجول مزعج يروّج لبضاعته بعربة يجرها حمار. أعرفه جيداً، إنه العريف ياسين الساكن في آخر الزقاق. كان عسكرياً متطوعاً برتبة عريف قبل الاحتلال، وعندما حلّ الحاكم الأمريكي بريمر الجيش العراقي لم يجد عملاً لإعالة أسرته أفضل من هذا العمل، لكن أهل الزقاق ظلوا يسمونه بـ «العريف».

كنت متعرّقاً تحت اللحاف، ولم أستطع أن أستحم بسبب انقطاع التيار الكهربائي كالعادة. ذهب والدي وأخي سبهان، قبيل شروق الشمس، إلى شاطئ دجلة لأداء طقس التعميد (المصبتا) مع جمع من الأقرباء والمعارف وبقيت نائماً، شاعراً بثقل في رأسي يمنعني من النهوض، رغم شغفي بهذا الطقس.

كانت ليلتي مترعةً بكوابيس شديدة الرعب بعدما نجوت من الموت أنا وصديقي سفيان الأيزيدي، الذي يشاركني المرحلة الرابعة في قسم الفلسفة بكلية الآداب، إثر خروجنا من شقة صديق مشترك في حي «الفضل»، بعدما قضينا عنده ليلةً خمريةً. كنا نترنح في الشارع مثل سكارى آخر الليل، ونغني بصوت جهوري كأننا وحدنا في مدينة مهجورة والعالم آيل إلى نهايته. كان الوقت قبيل الحادية عشرة، وثمة مخاطرة في الخروج إلى الشوارع، وسرعان ما استوقفتنا دورية أمريكية، وشهر أحد جنودها سلاحه علينا وأمرنا برفع أيدينا، وحين عرف أننا مخموران شتمنا وأشار إلينا أن نسلك زقاقاً ضيقاً، فامتثلنا له. وما إن وضعنا أقدامنا على مدخل

الزقاق حتى فوجئنا برشقة رصاص انطلقت من شباك مبنى في الشارع ومرقت من جانبنا، ربما أطلقها أحد رجال المقاومة على الدورية فلم تصب هدفها، فركضنا بكل ما أوتينا من قوة وذهبت نشوتنا إلى غير رجعة.

أزحت ستارة نافذة غرفتي في الطابق العلوي، وألقيت نظرةً على الزقاق، وقعت عيناي على صديقتي سليمة ابنة جارنا كريم النجار. كانت قد شرعت تواً في تعليق الثياب على حبل الغسيل في الشرفة. لوحت لها بيدي فتجاهلتني، رميت لها قبلةً في الهواء فأدارت لي ظهرها.

لم تكن صلتي بها قائمةً على عاطفة بريئة، بل على علاقة شهوانية صرفة، رغم أن ذلك يتنافى كلياً مع عقيدتنا التي تأمرنا بالامتناع عن المحرمات والغرائز الجسدية. كنت أتصرّف معها مثل معظم الشبّان في سني، أما بالنسبة لها فكان الأمر مختلفاً، كانت تشعر بغرام ملتهب تجاهي.

لم تكن سليمة تدرك الفارق الديني بيني وبينها، ربما لعدم نيلها قسطاً كافياً من الثقافة، أو بسبب نقص تعليمها، فهي بالكاد أنهت الصف الثالث المتوسط وتركت الدراسة من أجل إدارة شؤون البيت بعد وفاة أمّها. تعلمتْ الطبخ على يد خالتها زينب التي كانت تزورهم بين حين وآخر. ورفض والدها الزواج من امرأة ثانية خشية أن تظلم أبناءه الأربعة: سليمة وإخوتها الأصغر منها.

كنا نختلي ببعض في مطبخنا الصغير المجاور للباب الخارجي أثناء القيلولة، مرتين أو أكثر في الأسبوع، حينما تكون هي قد أنهت شغل

البيت، وأختي سولاف في المدرسة وأمي غافية في فراشها. كان عمرها ثمانية عشر عاماً، ذات قوام طويل وبشرة سمراء غامقة، تبدو أكبر سناً من أترابها، لها ثديان صلبان تزينهما حلمتان سوداوان كأنهما حبتا توت لا يمكن مقاومة إغرائهما. حينما كنت ألتصق بهما أحسّ باندلاع لهيب في أعماقي، لكن في كل مرة كان ينتابني الندم، بعد خروجها من البيت، وأعود ثانيةً إلى حزني الأبدي.

في الأيام الأولى كانت سليمة تتمنّع خجلاً، بيد أنها بمرور الوقت كفّت عن الشعور بالخجل وصارت تستجيب دون تردّد، لكن لا أدري ما الذي جرى لها في ذلك اليوم، بدت معتمةً، على غير عادتها، وجهها يشبه غيمةً داكنةً وعيناها يتطاير منهما الشرر. خيّل إليّ أن ثمة أمراً جللاً أغضبها وجعلها تصدّ عني. أشرت لها بكفي متسائلاً عما حدث فلم تعرني اهتماماً، وحين ألححت بالإشارة تركت غسيلها ودخلت إلى الدار.

بعد دقائق سمعت طرقاً على الباب، كانت أمي خارج الدار. هبطت بسرعة حافياً وفتحت الباب، فإذا بسليمة تندفع دون سلام ولا استئذان. كانت هيئتها غريبةً ونظرتها قاسيةً تعبّر عن نوع من التوحش. أغلقت الباب وقبضت على ذراعها:

ـ ماذا بك اليوم؟

تطلّعت إلى ما حولها وقالت بنبرة شرسة:

ـ اتركني، ألا تخاف أن ترانا أمك؟

ـ لا تتهربي، أنت تعرفين أن أمي خارج الدار.

غطت عينيها بكفها وأخذت تنشج، فاقتربت منها ووضعت رأسها على صدري:

ـ سليمة لا تبكي، قولي لي ماذا حدث؟

سحبت رأسها من صدري وابتعدت قليلاً وصاحت:

ـ أنت كذاب لا تحبني، تريد فقط أن تتمتع معي.

استغربت من انفعالها، ولم أكن أنتظر منها كلاماً كهذا، فقلت:

ـ اهدئي وحدّثيني، كيف عرفت أنني لا أحبك؟

ـ لو كنت تحبني لما أخفيت عني ديانتك.

ـ لم أخفِ عنك شيئاً، أنت تعرفين أننا صابئة.

ـ كنت أعتقد أنكم طائفة إسلامية مثل الشيعة والسنة.

ـ وكيف عرفتِ الآن أننا من ديانة مختلفة؟

ـ أخبرتني جارتنا نزيهة، وقالت اليوم عندكم عيد تسمونه التعميد الذهبي.

أجبت ببعض الزهو:

ـ صحيح، ونسميه بلغتنا دهبا إد دايما.

ـ يا سلام! عندكم لغة خاصة أيضاً؟

ـ إنها لغة آرامية قديمة يصعب عليك فهم أصولها، وأنا لا أجيد إلاّ القليل منها.

ـ هكذا أنت، دائماً تعتبرني غبيةً لأني لم أكمل تعليمي.

ـ على العكس أنت ذكية. ماذا قالت أيضاً جارتك المصون؟

ـ قالت إنكم تعبدون الكواكب، ولا تعرفون الله.

شعرت بالإهانة فقلت:

ـ هذه افتراءات، نحن مثلكم موحّدون، نعبد الله الحي الأزلي. يقول كتابنا المقدس الكنزاربّا: يا أصفيائي أيها المؤمنون، لا تمجّدوا الشمس والقمر، هو الله الذي أمر، فكان لهما وللكواكب هذا الضياء، لكي ينيروا به الظلماء.

ـ هل هذا قرآنكم؟

تردّدت قليلاً ثم أجبت:

ـ نعم، وهو يحتوي على صحف آدم ونوح وسام وغيرهم، وآخرهم يحيى بن زكريا.

ـ وماذا تقولون عن الله.

ـ نقول ما جاء في الكنزاربّا: باسم الحي العظيم، مسبّح ربي بقلب نقي، هو الحيّ العظيم، البصير القدير العليم، العزيز الحكيم، هو الأزلي القديم...

ارتسمت علامات دهشة على وجه سليمة، وتركت نظراتها تزوغ في الفراغ، ثم قالت:

ـ شيء غريب، كأنكم تذكرون مثلنا بعض أسماء الله الحسنى.

ـ أرأيتِ؟ نحن لا نعبد الكواكب كما تتّهمنا تلك الساقطة.

ـ هل ذكركم قرآننا؟

ـ طبعاً، ذكرنا في ثلاث سور.

ـ ماذا قال؟

ـ قال في سورة البقرة: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ـ لكن في المدرسة علّمونا أن الديانات ثلاث فقط: اليهودية والمسيحيّة والإسلام. وأتذكّر أن مدرّستنا كانت تقول من مات ولم يصبح مسلماً لا يدخل الجنة.

أجبتها ساخراً:

ـ هل أبلغتكم باسم البواب الذي يحتفظ بمفتاح الجنة؟

ـ أنت تستهزئ؟

قلت بنبرة جادة:

ـ استهزئ لأن الحي الأزلي وحده من يقرر ذلك.

صمتت سليمة، ولاحظت في عينيها شيئاً من الحيرة، وحين تأملتها جيداً انتبهت إلى أنها لا ترتدي حمالة صدر، فأغراني جسدها. مددت يدي إلى وجنتها وقلت بجرس ليّن محاولاً تطييب خاطرها:

ـ سلومة، دعك من هذا الموضوع وتعالي معي إلى غرفتي، اليوم فرصتنا الذهبية للاستمتاع في السرير.

بيد أنها كانت لا تزال غاضبةً فلم تطاوعني، تركتني وذهبت إلى شجرة السرو التي تتوسط باحة الدار وأسندت ظهرها إليها وقالت:

ـ يوم ذهبي وتعميد ذهبي إلاّ قلبك ليس من ذهب!

استفزّني تعليقها فقلت:

ـ اليوم تبدين وكأنك فيلسوفة يا سليمة بنت كريم النجار.

لم يعجبها كلامي فسألتني بعصبية:

ـ لماذا لم تذهب اليوم مع أهلك إلى النهر؟

ـ وما أدراك أنهم ذهبوا إلى هناك؟

ـ أخبرتني الجارة.

ـ هل تمتلك هذه الحقيرة علم الغيب؟

ـ لا أحد يمتلك علم الغيب.

ـ كيف عرفت إذن؟

ـ لا أدري، قالت إن والدك وأخاك كانا يرتديان ثياباً بيضاً ويؤديان مع آخرين حركات غريبةً في مياه النهر.

فوجئت بردها، فزعقت:

ـ هل أنت متأكدة من أنها لا تعمل جاسوسةً؟

قالت ببرود:

ـ لماذا أنت مغتاظ منها؟

ـ بل لماذا أنت مغتاظة من طقوسنا؟ إنها جزء من ثقافتنا الدينية، نحن نمجّد الماء الجاري ونقرنه بالحياة، ونرى أن له صلةً بالخالق وبعالم النور.

ـ مغتاظة لأنك لست مسلماً، وحرام أن ترتبط مسلمة بغير مسلم.

ـ يعني لو أني كنت مسلماً لما كان ما تفعلينه معي حراماً؟

فاجأها سؤالي وأشعرها بالحرج ففكّرتْ قليلاً وردت:

ـ ظننت أنك تحبني وستطلبني للزواج.

ـ أنا لا أفكر في الزواج أصلاً.. أقصد لا منك ولا من غيرك.

ـ إذن كنت تشبع رغبتك معي فقط؟

ـ كنت أبدّد جزءاً من حزني وأقضي على سآمتي المضنية.

ـ وأنا ما ذنبي؟

ـ أنت أيضاً كنت تستمتعين، هل تنكرين؟

ـ لا أنكر.

ـ سليمة، اعلمي أن ديانتي أيضاً لا تسمح بالزواج منك.

ـ لو أنك تحبني لطلبت منك أن تسلم.

نظرت إليها مذهولاً من قدرتها على التفكير في أمر كهذا وقلت بحزم:

ـ حتى لو أني أحبك لن أغير ديانتي.. ثم أنك بصراحة لا تصلحين زوجةً لي.

ابتعدت عن الشجرة وواجهتني بعينين حادتين:

ـ لماذا؟ أي شيء ينقصني أيها الشاعر؟ كنتَ تتغنّى بطولي وبريق عيني وجمال جسدي.

ـ لا تزعلي، كنت أتغنّى من باب الشهوة، لكن توجد أشياء كثيرة تفصل بيني وبينك.

ـ أعرف، أنت بعد أشهر ستكمل دراسة الفلسفة في الجامعة وأنا نصف متعلمة.. وربما لوني أيضاً حاجز بيننا.

ـ ما هذا الكلام سليمة؟

ـ هذه هي الحقيقة.. ولن أقول شيئاً سوى أنني أدعو الله أن يسامحك ويوفّقك مع الزوجة المناسبة لك.. كل عام وأنت بخير.

اكتفت سليمة بهذا الرد، وخرجت صافقةً الباب خلفها وكأنها صفعتني على وجهي. شعرت بتأنيب ضمير ووخزة في القلب تنم عن إحساس بالعار. ظل صدى كلامها يرن في داخلي، فأنا أول مرة منذ بداية علاقتي بها قبل ذلك اليوم بسنة تقريباً أحسّ بأنها أصبحت فتاةً ناضجةً، وهذا ما جعلني أتألم وأندم على كل ما فعلته معها.

كان يجب أن أعتذر لها بلطف بدلاً من الكلام الذي تفوهتُ به. أي شيطان دفعني إلى ذلك؟ أي حماقة ارتكبتها حين قلت لها إني أقضي على سآمتي معها؟ أين دفنت شاعريتي في تلك المواجهة بيني وبينها؟

بقيت بضع دقائق أوبّخ نفسي على تصرفي البليد مع سليمة، وعزوت

ذلك إلى فجاجة تدبيري أو الطيش الذي يركبني أحياناً، وتمنيت لو أني ذهبت إلى النهر وارتمست بالماء لعل الحي ربّي الأزلي يخفّف عني بعضاً من ثقل خطاياي. فكّرت في أن أكتب لها اعتذاراً وأرمي الورقة إلى شرفتها، فلعلّها تعود إلى تعليق ما تبقى من غسيلها وتقرأها. صعدت إلى غرفتي وكتبت الاعتذار على عجل وكوّرت الورقة بعدما وضعت ثقلاً فيها. كانت سليمة قد رجعت بالفعل إلى الشرفة فرأتني حين رميتها.

نزلت إلى المطبخ لتناول فطوري. كنت فرحاً لما أقدمت عليه، فسليمة فتاة يتيمة طيبة ذات قلب نقي، ويجب ألاّ أخطئ ثانيةً في تقدير حقيقة عواطفها وقناعاتها الدينية. إنني في أعماق قلبي أقدّر كل ما منحتني من متعة، ولم يسبق لي قبلها ملامسة جسد امرأة، لذلك قرّرت أن أظل أدعو لها ما حييت بالخير والسعادة.

بعد أقل من ساعة سمعت طرقاً ثانياً على الباب، فاعتقدتّ بأن سليمة جاءت لتقول لي إنها قبلت اعتذاري. فتحت الباب بسرعة فإذا بها رفقة خالتها زينب. كنت قد رأيت هذه المرأة، التي ترتدي عباءةً سوداء كاحلةً، مرتين أو ثلاث حينما كانت تأتي لتعليم سليمة فن الطبخ. عمرها لا يزيد عن الأربعين، ذات سمرة فاتحة، تحتفظ بشيء من أنوثتها رغم أنها أم لثلاثة أولاد. لم تنطّق سليمة بكلمة، لكن خالتها قالت بصوت مرتعش:

ـ اعذرني، أحمل لك خبراً سيئاً، جماعة مسلحة خطفت والدك وأخاك.

خفق قلبي وتلعثمت:

ـ جماعة مسلحة، أين؟

ـ في «الميدان». كنت هناك مصادفةً أنتظر الباص، رأيتهما يترجّلان من سيارة برازيلي حمراء، وفجأةً استوقفهما أربعة مسلحين ملثّمين نزلا من سيارة لاندكروزر مظللة وأرغماهما على الدخول فيها. يشهد الله أنني عدت فقط لأخبرك.

ـ كيف عرفتهما؟

ـ أعرفهما منذ أن كنت أسكن في هذا الزقاق.

صدمني الخبر، كدت أنهار على عتبة الباب لو لم تمسكني سليمة وزينب من ذراعيّ. أدخلتني إلى باحة الدار وأجلستاني على الكنبة الخشبية، أسرعت سليمة إلى المطبخ وأحضرت دورق ماء، رشت بعضاً منه على وجهي وسقتني قليلاً مما تبقى في الدورق.

كان بالفعل يوم شؤم مثلما حدست، وكنت دون ريب سأُخطف أنا أيضاً لو أني رافقت أبي وأخي إلى النهر.

كانت أمي ذاهبةً إلى دار خالتي في بلدة «الكحلاء» عصر العيد لحضور حفل خطبة ابنتها، ولم يسمحوا لها بالعودة ليلاً. عندما رجعت بعد نصف ساعة من خروج سليمة وخالتها وجدتني في حالة مشوّشة. سألتني لماذا لم أرافق والدي وأخي إلى النهر في ذلك اليوم المقدّس، فتعلّلت بأن النوم أخذني. أردت أن أخفي عنها الخبر فلم أستطع، لقد أحسّت على الفور بأن

أمراً ما حدث، وحين أخبرتها كانت ردة فعلها شبيهة بردة فعلي. ناديت على عجل سليمة وخالتها وهرعت إلى الشرطة للإبلاغ عن الحادثة.

في المركز كشف لي أحد الضباط عن حوادث مشابهة تقع يومياً في العديد من مناطق بغداد ولا يستطيعون منعها. وعلّق شاب ثلاثيني كان يجلس في مكتبه، بدا عليه أنه مثقف متنور، قائلاً:

ـ عذراً أخي، الصابئي في نظر هؤلاء الظلاميين دجاجة تبيض ذهباً، وماله وعرضه حلال عندهم لأنه كافر، وقتله يسهّل لهم دخول الجنة.

وتمنى ألاّ يرتكب الخاطفون جريمةً.

عندما خرجت من المركز لحق بي ذلك الشاب وصافحني قائلاً:

ـ أقدّم لك نفسي، أنا صحفي اسمي يوسف البكري أعمل في جريدة طريق الشعب، إذا أردت نصيحتي غادر البلد أنت وأسرتك، لن تستطيعوا العيش فيه بعدما أصيب بالسعار وفلتت زمام أموره.

نظرت إليه مليّاً وقلت:

ـ لكنّ هذا ما يريده الظلاميون.. إفراغ البلد مِن كل الذين يختلفون عنهم.

ابتسم وقال:

ـ البلد سينحدر عاجلاً أم آجلاً إلى خراب أوسع. حتى نحن المسلمين العلمانيين نعاني كثيراً.. اسمعني، أنتم أقليّة الأقليّات، ويعاملونكم بمبدأ

النجاسة، ويحرّمون عليكم في الأسواق مسك الخضار أو الفاكهة أو الخبز، بل لم يعودوا يسمحون لكم بالتواجد في بعض المدن التي ولدتم وعشتم فيها، وستتحول قريباً إلى مدن مقدّسة لا يجوز أن يدنّسها غير المسلمين.

ـ لماذا لا تغادر أنت ما دمت تعاني؟

ـ أتمنى أن أغادر اليوم قبل الغد، إلاّ أن أبي لا يوافق.

صمت برهةً، ثم أضاف:

ـ إنه عضو متقدم في الحزب الشيوعي ويحسّ بحرج شديد.. لكني قد أفعلها يوماً ما.

ـ أبي أيضاً كان شيوعياً وأُرغم على ترك الحزب قبل عقدين.

لم تتحقق أمنية يوسف، الذي أصبح صديقاً حميماً لي بعد لقائنا في مكتب مفوضية اللاجئين بعمّان، فقد عُثر بعد يومين على جثتيهما مرميّتين على مقربة من مكان التعميد، وألصقت على ظهر كل منهما كرتونة مكتوب على احداها «ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه»، وعلى الثانية «لا مكان لعبدة الكواكب بين المسلمين».

واريناهما الثرى بلا غسل، فالغسل عندنا يكون لمن به حياة ويحتضر. وإذا كانت نفسه قد فارقته تنتفي فائدة الغسل، لأن الجسم من غير نفس كتلة تراب أو طين مجبول.

أجرينا لهما مراسيم المسخثة (تطهير الروح)، وهي طقوس تقام على روح الميت الذي يموت غيلةً، وجهّزنا لهما ملابس بيضاء (رستة) لبسهما

شخصان يحملان نفس الاسم الديني، ثم ثبّتنا إكليلين من الآس على رأسيهما ووضعناهما في نعشيهما، وقرأنا الفاتحة على روحيهما «نطق الحي العظيم، وألقى بأفواهكم النور والضياء، الوقار لأنفسكم، وسبحان الحي».

حملنا الجنازتين في موكب يزيد عن عشر سيارات إلى مقبرتنا الخاصة الواقعة على مسافة بضعة أميال عن سجن «أبو غريب».

كانت فضيحة ذلك السجن الرهيب وقتها قد ظهرت تواً إلى العلن، بعد هزيمة الجيش الأمريكي في معركة الفلوجة الأولى بشهر، وغطت الفضيحة على جريمة قتل أبي وأخي، حينما كشفت وسائل إعلامية عن حقيقة المعاملة الوحشية التي كان يتعرّض لها المعتقلون العراقيون في السجن، مدعومةً بصور مخجلة لجنود ومجندات الاحتلال وهم يتلذّذون بارتكاب جرائم سادية وخليعة بحق هؤلاء المعتقلين: صبّ مواد كيمياوية حارقة على أجسادهم، رشّ الماء البارد عليهم وهم عراة، ضربهم بالمكانس والكراسي، اغتصاب بعضهم في الحمّامات، دعس جراح الجرحى منهم إمعاناً في إيلامهم، إدخال عصا المكنسة وصبّ مواد كيماوية مؤذية في أدبارهم، تسليط الكلاب عليهم لتنهش أجسادهم العارية، ربط أصابع أيديهم وأرجلهم وأعضائهم التناسلية بأسلاك كهربائية صاعقة، وغير ذلك من الجرائم التي قيل عنها إنها وصمة عار في تاريخ أمريكا.

قد يبدو استرسالي في هذه الفضيحة خروجاً على السياق، لكن لا

بأس سأواصل سرد القصة. كان يوم الدفن يوماً عصيباً، لم نستطع أن نرفع الدرفش (راية النور) على السيارة التي تحمل جنازتيهما، بل أخفيناه داخلها خوفاً من المتطرفين في الطريق.

اعترضتنا الدوريات الأمريكية مرات عديدةً ونحن متجهين إلى «أبو غريب». كان جنود المارينز يشهرون بنادقهم علينا ويأمرون بفتح النعشين ليتأكدوا من أنهما غير معبّأين بالأسلحة. أكثر ما كان يثير ريبتهم اللحى الطويلة في وجوه المشيّعين من الترامذة (الكهنة المكرّسين) والحلاليين، أو الشكندات (بمنزلة الشمامسة عند المسيحيّين) ظناً منهم أنهم إسلاميون متطرّفون.

في احدى نقاط التفتيش سألتنا مجنّدة سوداء شابة تحمل شبهاً بسليمة عن تلك اللحى، فأجابها ترميذا يتقن الإنكليزية بإن ديانتنا المندائية تحرّم حلقها. فغرت المجندة فاهها مستغربةً من وجود ديانة بهذا الاسم، ثم أخرجت دفتراً صغيراً من جيبها ودونت فيها بضعة أسطر بعدما أجابها الترميذا على سؤالها «How do you spell Mandaean?». حين رأت الدرفش المكوَّن من صليب مغطى برداء كهنوتي أبيض من الحرير أصرّت أن تلتقط له صورةً، وطلبت من الترميذا أن يشرح لها دلالته، فقال لها، وهي تدون، إنه يرمز إلى عوالم النور، وقطعة القماش البيضاء تمثل بياض تلك العوالم ونقائها وطهارتها، وأغصان الآس السبعة المحيطة بعنقه تمثل الكلمات التي خلق بها الرب الكون والطيب والخير والسلام فيها.

بيد أن فضول المجندة لم يقف عند هذا الحد، بل سألت الترميذا أن يحكي لها قليلاً عن العقيدة المندائية، فأجابها بإنها ديانة موحِّدة توحيداً باطنيّاً تؤمن بإله واحد معبود مستقل ومبعوث بذاته، غير محدود الأسماء والصفات والقوة والإرادة، منتشر في جميع الفضائل ويسكن الشمال القاصي، وذلك عن طريق العرفان، وهو الـمندا، أي أن الوصول إلى التوحيد ينكشف في القلب مثل ومض نوراني ينتج عن تعرّف الروح في الجسد الإنساني إلى أصلها النوراني الهابط من عالم النور. وللمندائية لاهوت وأساطير وطقوس، كلّها ذات طبيعة غنوصية ونضال ضد الشر، وتوجّهٌ إلى الخير والنور وخلاص النفس البشرية من عالم الظلام قبل الموت وبعده.

دونّت المجندة كل تلك المعلومات في دفترها وهي في حالة انبهار، ثم حيّتنا بتحية عسكرية وسمحت لنا بالمرور، ورفعت كاميرتها وأخذت تلتقط صوراً للموكب.

لم تكن طقوس الدفن في المقبرة مألوفةً بالنسبة لي، فأنا أول مرة في حياتي أحضرها. في البدء تقدَّم أربعة حلاليين وعملوا «منِدلتة»، من قصب يغرزونه في الأرض على رزدق واحد، وقسموها إلى ثلاثة أقسام وربطوا كل قسم بخيط من الخوص دون أن يقطعوه.

كانت المنِدلتة بعيدة عن النعشين بعداً كافياً يمكِّنهم من أن يجولوا حولها. ثمّ حملوا نعش والدي أولاً ورفعوه فوق رؤوسهم وعبروا به فوق

تلك المندِلتة. حين اجتازوها عاد الرابع ووقف وراءها ووضع عليها طيناً وقطّعه بسكين قطعاً مستديرةً وختمها بخاتم منقوش عليها صور أربعة حيوانات: حيَّة وأسد وعقرب ودبور، وطلب الصفح والغفران لنفس والدي، ثم لحق بحاملي نعشه، وسار معهم حتى وصلوا إلى مكان الدفن وأنزلوا النعش من على رؤوسهم، وتقدّم صاحب الختم وأخذ مسحاةً وراح يملأها بالتراب، وهو يكرر ما قاله عند ختمه المندِلتة، ويُلقي به إلى الخلف من فوق كتفه الأيسر، وبذلك حدّد مكان القبر ليقوم الحفّارون بعملهم، والترميذا يقرأُ من بعيد في «السدرا ربّا» وأمامه الدرفش.

بعد أن أتمّوا حفر القبر أنزلوا الجثة في الحفرة بحيث يكون الرأس متجهاً إلى الشمال حيث بيت الرب (بيت أواثر)، والرِجلان متَّجهتين إلى الجنوب. ولمّا انتهى الترميذا من صلاته ألقى عليها بعض التراب وعاد إلى القراءة. عندئذ أكمل الحاضرون دفنه، ودنا صاحب الختم وختم تراب القبر من جهة الرأس. وتكرر طقس الدفن نفسه لأخي سبهان.

أقمنا مجلس العزاء بشكل سري في دار عمي منادي بحي «السيدية»، وأصدر الكنزبرا الأكبر سناً أمراً صارماً للنساء بعدم الندب والعويل، وهما محرَّمان أصلاً في عقيدتنا، تجنباً لوقوع مجزرة قد ينفذها إرهابي من هؤلاء القتلة بحزام ناسف، واقتصر تقديم اللوفاني (طعام الغفران) للفقيدين على عدد محدود من المعزّين. لكن أمي المفجوعة لم تكن قادرةً على حبس حزنها في صدرها فتنوح بين حين وآخر بصوت مخنوق:

«يا صاح دمعي نشف ما ظل دمع بالعين

فراك الأحبهم صعب شك الكلب نصين»(*)

وتجيبها النسوة «يبو... يبو.. يبو.. يماي... يماي... يماي»، وهن يضربن براحات أيديهن مراتٍ على وجوههن وجباههن ومراتٍ أخرى على صدورهن».

(*) فراك= فراق، شك= مزّق.

أفرام

2006

عندما طلبت معلمتنا زهرة خان أن يكتب كل منا قصته، التي مُنح عليها حق اللجوء، شعرت بحرج كبير، فقدرتي على كتابة القصة لا ترقى حتى إلى قدرة الأدباء الناشئين. صحيح أنني نجحت في سرد وقائع قصتي شفهياً للمحلّفين الذين قابلوني في مكتب المفوضية، لكن كان من الصعب عليّ أن أدوّنها بأسلوب أدبي، ذلك لأن علاقتي بالأدب لا تتعدّى قراءة الشعر وبعض القصص والروايات البوليسية والرومانسية مثل أغلب أترابي. بيد أني حاولت، وساعدتني حماتي سارة في تنقيحها لتبدو مقبولةً لمن يقرأها.

على أية حال، هذه هي القصة، لم أضف إليها حرفاً منذ كتابتها:

«في صبيحة يوم أحد ممطر من شهر شباط عام 2004، غادرنا الموصل، أنا وأمي وأختي ميرنا وأخي الشماس صموئيل، إلى دير «متّى» لحضور سيامته كاهناً، في قدّاس احتفالي يترأسه المطران مار أثناسيوس بطرس، في

كنيسة السيدة العذراء داخل الدير. لم ترافقنا خطيبتي تيريزا بسبب وعكة صحية ألّمت بها، ولا زوجة صموئيل التي كانت في أيام حملها الأخيرة، تنتظر بفارغ الصبر مولودها البكر، بينما ظلّ جورج زوج ميرنا في الدار مع طفليه.

يقع دير «متّى» على بعد 35 كلم شمال شرق الموصل في صدر جبل «مقلوب»، وهو من أشهر أديرتنا وأقدمها. عند مدخله توجد قاعة محاضرات كبيرة باسم العالِم السرياني ابن العبري، ومكتبة صغيرة تبيع الأناجيل وبعض الهدايا كالصلبان وقطع نحتية تجسد العذراء، وعلى مقربة منهما خارطة ضوئية لمعالمه. في الدير أيضاً كنيسة ثانية هي كنيسة القديس مار متّى. وفي الأسفل من جهة الغرب يوجد كهف «الناقوط»، الذي تحول إلى مطعم.

في بداية طقوس السيامة، التي حضرها عدد من الكهنة والشمامسة، قام أخي بتلاوة القسَم والعهد أمام الصليب والإنجيل المقدّس معلناً ولاءه والتزامه الدائمين بخدمة الكنيسة. وبينما كان يتلو القسَم لمحتُ أمي الجالسة جنبي تبكي بصمت حزناً على غياب أبي الراحل عن تلك المناسبة. بعدها قصّ المطران بعض الخصلات من شعر صموئيل على شكل صليب، وألقى عظةً قال فيها: «بالنعمة الإلهية لم يعد الشماس ابناً، بل صار أباً وكاهناً يستمد كهنوته من كهنوت ربّنا يسوع المسيح...». وطلب من صموئيل أن يستمع إلى الناس ويعاملهم معاملة الأب لأولاده

في المنزل، وأن يكون مضحّياً معهم ويسهر عليهم، عندها يقيمه الله على عروش قلوبهم أبداً.

انتقل الجميع، إثر انتهاء القدّاس، إلى احدى قاعات الكنيسة لتناول غذاء محبة بالمناسبة، ثم قفلنا راجعين إلى الموصل. في الربع الأول من الطريق بدأت السماء تتلبّد بسحب سوداء مصحوبةً بالرعد والبرق، وأخذت الريح تهب من الشمال وتسوط الأشجار على جانبي الطريق منذرةً بحدوث عاصفة.

شعرت أمّي بالقلق، وطلبت مني أن أنعطف بالسيارة إلى بلدة «بعشيقة» القريبة تفادياً لأخطار العاصفة، فامتثلت لها وتوجهنا إلى دار المرحوم جدّي وسط البلدة، وهي الدار التي ولد فيها أبي أواخر الأربعينات، ثم تركها بعد زواجه وأقام في دار بحي «الزهور» شرق الموصل اشتراها من تاجر «شبكي»(*) هاجر إلى ألمانيا، وفيها ولدنا نحن عياله الثلاثة.

كان قلق أمي من الطقس في محله، فما إن وصلنا إلى دار جدّي حتى هبت العاصفة محملةً بمطر شديد كأنه بداية لطوفان سيكتسح سهل نينوى كله. لم نجد في الدار سوى جدّتي المقعدة، التي صارت أيامها معدودةً، وخادمتها وعمي شمعون وزوجته اللذين سبقانا في العودة

(*) نسبةً إلى «الشبك»، وهم أقلية مسلمة يعيش أبناؤها في سهل نينوى شمال العراق منذ ما يقارب خمسة قرون، ويتحدثون لغةً تتميز عن العربية والكردية، ولهم تقاليدهم الخاصة ولباسهم الشعبي الذي حافظوا عليه، ويشتركون في ميراث عقائدي طقوسي (من العرفان والتصوف).

من الدير. كان قد مضى أكثر من ثلاثة أشهر على زيارتي الأخيرة لهم، لذا وبختني جدّتي على عقوقي وأنا أقبّلها من وجنتيها اللتين تحولتا إلى خارطة من التجاعيد، وكان لا بدّ من الاعتراف لها بتقصيري. في حين أثنت على حفيدها صموئيل وهنأته على تقبّله سر الكهنوت المقدّس، ودعت له بولد يسير على خطاه، وينضّم إلى قافلة جنود الحق ورعاة المسيحيّة.

توقفت العاصفة بعد العصر وخلت السماء من السحب، فجاء عدد من جيران دار جدّي وباركوا للكاهن الجديد، وتضرعوا إلى الرّب يسوع أن يوفقه ليكون مثالاً للأب الراعي الصالح. كانت جدّتي ترغب في بقائنا عندها إلى اليوم التالي، وشاطرتها أمي في رغبتها، إلاّ أن صموئيل كان مرتبطاً بمواعيد في الموصل لا يستطيع التنصل عنها.

ودعنا جدّتي مع هبوط الظلام حين صارت تسعل كثيراً وتغفو أثناء تبادل الحديث معها. كانت شوارع البلدة لا تزال مغمورةً بالمياه والناس لازمين دورهم لا يبارحونها. قدّتُ السيارة على مهل شديد، ملتزماً بتحذيرات أمي، فاستغرق وصولنا إلى الطريق المؤدي إلى الموصل حوالي نصف ساعة. الجميع بدت عليهم آثار التعب، لكن ثمة هواجس كانت تمنعهم من الاستسلام للنوم، فراحوا يتطلعون إلى السماء التي امتلأت بنجوم صغيرة على امتداد البصر.

انشغلت أنا بسماع الراديو، وشدّني تقرير طريف بثته إذاعة البي بي سي عن مقتل 18 شابة في حفل اختيار الزوجة التاسعة لملك سوازيلاند، وهو

حفل تشارك فيه قرابة 40 ألف فتاة كل عام في مهرجان راقص يستمر ثمانية أيام، يظهرن فيه شبه عاريات أمام القصر الملكي بهدف إغراء الملك ليختار من بينهن زوجةً جديدةً.

استغربت أمي من التقرير وسألت صموئيل:

ـ هل هؤلاء وثنيون؟

أجابها:

ـ بل أغلبهم مسيحيّون، لكنهم يخلطون بين المسيحيّة والتقاليد الأفريقية القديمة، ولذلك يتّخذ رجالهم عدداً غير محدود من الزوجات.

ضحكت أمي وقالت:

ـ كيف يستطيع الواحد منهم تلبية حقوقهن وإعالة جيش من أطفالهن؟

ـ الله أعلم.

ـ نحن نلوم المسلمين على الزواج من أربع، بينما هؤلاء مسيحيّون ويتزوجون عدداً غير محدود من النساء.

ـ لا تستغربي، ثمة كنيسة في أمريكا تسمح أيضاً بتعدد الزوجات.

أطلقت أمي شهقةً من أعماقها، ورسمت صليباً في الهواء وغمغمت:

ـ يا مريم العذراء! أية كنيسة هذه؟

ـ يسميها المنتسبون إليها كنيسة يسوع المسيح لقدّيسي الأيام الأخيرة، وهي منشقة عن الكنيسة المرمونية.

ـ يا للفظاعة! يسوع بريء منهم.

ـ العالم فيه غرائب كثيرة.

قبل بلوغنا الموصل ببضعة كيلومترات فوجئنا بشاخصة كبيرة، على بعد حوالي 250 متراً عن تقاطع أربع طرق، مكتوب عليها «خفّف السرعة أمامك نقطة تفتيش»، بيد أن صموئيل أدرك على الفور أنها ليست نقطة تفتيش رسميّة، لأنها لم تكن موجودةً صباح ذلك اليوم، بل كميناً وضعه إرهابيون، فصرخت أمي طالبةً مني أن أتوقف وأستدير إلى «بعشيقة»، وشاركتها في ذلك أختي ميرنا، فامتثلتُ لهما وأوقفت السيارة وأطفأت مصابيحها، بيد أن صموئيل كان له رأي آخر، ربتَ على كتفي وطلب مني أن أقود السيارة بأقصى سرعة، وألاّ أتوقف عند الكمين مهما تكن العواقب.

بقيت ثواني تعصف بي حيرة شديدة، هل أستجيب لطلب أمّي أم لطلب أخي؟ وسرعان ما أوعز لي إلهام بأن لا خطورة إذا ما نفذّت رغبة أمّي، بينما سأخاطر جداً إن نفذّت ما أراده أخي، فاستدرت على وجه السرعة وانطلقت راجعاً. ظل صموئيل صامتاً، شعرت بانزعاجه من عصياني له، في حين اطمأنت نفس أمّي، ولمحتها في المرآة تبتسم لي.

لم يخطر في بالي أن أصحاب الكمين لاحظوا، وهم على مبعدة عنّا، استدارة سيارتنا وعودتنا من حيث جئنا، لكني فوجئت بعد دقائق برؤية مصابيح سيارة في المرآة قادمة من الخلف، غير أنها كانت بعيدةً، فأيقنت

أنهم يقتفون أثرنا. ورغم القلق الذي انتابني زدت من سرعة سيارتي إلى أقصى ما تتحمل، إلاّ أنها خذلتني، بسبب محركها الصغير، فلم تقوَ على الابتعاد عن السيارة التي تطاردني، وهي كما بدا لي من قوة مصابيحها ذات دفع رباعي. طبعاً عرف أهلي عندئذ بما كان يحدث، فتملّك أمي وأختي خوف شديد، وطفقتا تدعوان يسوع بصوت مرتعش إلى إنقاذنا من المحنة.

شيئاً فشيئاً اقتربت السيارة منا، ظننت أن أصحابها سيمرون من جنبنا شاهرين أسلحتهم ويأمروننا بالتوقف، أو ستجتازنا وتغلق الطريق أمام سيارتنا لإرغامنا على ذلك. لكن ظني خاب عندما سمعت صوت رشقة رصاص وتحطُّم الزجاجة الخلفية لسيارتنا. دهمني هلع وارتباك شديدين، فضغطت على فرامل السيارة وأوقفتها على يمين الطريق، وبقيت ممسكاً بالمقود، جامداً مثل تمثال، وعينيّ مغروستين في المرآة بانتظار ما سيفعله هؤلاء الأوغاد، لكن سيارتهم اختفت فجأة، وكأن الأرض انشقت وابتلعتها. التفتُّ إلى صموئيل وهتفتُ بنبرة تمتزج فيها الفرحة بالدهشة:

ـ الحمد لله، لقد عادوا أدراجهم.

كنت مذهولاً فلم أنتظر منه رداً، ثم استدرت إلى أمي وميرنا وقلت لهما بنفس النبرة:

ـ الرّب استجاب لدعواتكما.

لكنهما لم تنبسا بكلمة، ظننت أنهما ما زالتا مصدومتين من هول الموقف. عندما أردت أن أعاود قيادة السيارة سمعت أنيناً صدر عن أمي، فنزلت

على الفور وفتحت الباب الخلفي الذي تجلس جنبه وأحطت رقبتها بذراعي، وهززت جسمها بيدي الأخرى:

ـ ما بك ماما؟ لقد نجونا منهم، هربوا.

لم ترد مرةً أخرى، وشعرت بسائل ساخن تحت ذراعي ففزعت. أغلقت الباب بسرعة وقدّت السيارة إلى «بعشيقة». كنت في حالة نفسية مدمرة، وبالي موزعاً بين أمي والتركيز على الطريق، فلم أنتبه إلى صموئيل، الذي أحنى رأسه على صدره كأنه غطّ في نوم عميق.

حين بلغنا مدخل «بعشيقة» سمعت ميرنا تسألني بصوت متقطع:

ـ أفرام، ماذا حدث؟ لماذ كلكم صامتون؟

خشيت أن أخبرها بإصابة أمي، قلت لها:

ـ لا شيء، ها أنذا أكلمك.

ـ أمي وصموئيل لماذا لا يتكلمان؟

ـ اطمئني، ربما فقدا الوعي نتيجة الصدمة، وسآخذهما إلى المركز الطبي في بعشيقة.

ـ لماذا لم نذهب إلى الموصل؟

أدركتُ أنها ليست في كامل وعيها فقلت:

ـ سأشرح لك فيما بعد، تمسكي بماما فقط لئلا يرتطم رأسها بظهر المقعد.

فكّرت في أن أطلب من ميرنا خلع بلوزتها ولفّ رقبة أمّي بها، لكني خشيت أن تسألني عن السبب فالتزمت الصمت.

يا يسوع كم كان الموقف صعباً، ولا أدري من أين أتتني كل تلك الشجاعة التي مكّنتني من تحمله!

وجدت في المركز الطبي طبيبين وبضعة ممرضين وبضع ممرضات، وكنت أخشى أن يكون الجميع قد لاذوا ببيوتهم في ذلك اليوم العاصف. أخبرتهم طبعاً بإصابة أمي فقط، فأدخلوها بسرعة إلى المركز، ولم يدر في خلدي أن صموئيل مصاب أيضاً، لكني أدركت ذلك حينما أضأتُ المصباح الداخلي للسيارة، وهززت جسمه بقوة ليسترجع وعيه، ظناً مني أنه مغمى عليه بالفعل، فسقط على مقعد السائق، ورأيت الدم على ردائه الكهنوتي وتحت قدميه. صرخت «ويلاه، أخي أيضاً مصاب»، فهرع الممرضون وحملوه إلى الداخل.

حينما أجرى الطبيبان لهما فحصاً سريعاً تبيّن أن عدة رصاصات اخترقت رأس صموئيل ورقبته ففارق الحياة، أما أمي فقد كان قلبها لا يزال ينبض رغم إصابتها البليغة. شعرت بقليل من الإطمئنان، لكن الطبيب الأكبر سنّاً بدا يائساً، أخبرني بأنها لن تعيش أكثر من نصف ساعة أخرى حتى لو جرى نقلها افتراضاً بطائرة مروحية إلى احدى مستشفيات الموصل، فصرخت والدموع تنهمر من عينيّ:

ـ لا، لا، لا! يا مخلص، ليس عدلاً أن يموت كلاهما، ليس عدلاً.

أمسكني الطبيب من ذراعي وأخذ يهدّئني:

ـ هوّن عليك يا ولدي، إنها محنتنا جميعاً.. أمك وأخوك سيكونان بمنزلة قدّيسين أو ضحيتين من أجل المسيحية.

ثم سحبني إلى الممر وقال:

ـ هؤلاء الذين قتلوهما كانوا يترصّدون أخاك، وقد خطّطوا لاغتياله يوم سيامته كاهناً بالتحديد لكي يوصلوا لنا جميعاً رسالةً وقحةً».

ـ أي رسالة دكتور؟

سألته بصوت متكسّر، فأجاب:

ـ أنت شاب مسيحي ذكي وتعرف لماذا يستهدفنا الإسلاميون المتطرّفون، إنهم يريدون اقتلاعنا من جذورنا بكل أساليب الإرهاب.

ـ أعرف ذلك.

ـ كنتُ صديقاً لأبيك المرحوم جبرائيل في الثانوية وعليك أن تأخذ بنصيحتي.

ـ بماذا تصنحني؟

ـ أنصحك بأن تكون أنت وأختك حذرين جداً.

ـ من الإرهابيين؟

ـ منهم ومن الإعلام أيضاً، لأنه سيلاحقكما حتى ينتزع منكما تفاصيل عن الحادث، فلا تتحدثا عما يمكن أن يستفزهم.

ـ هل تريدني أن أخفي جريمة قتل أهلي؟

ـ لا، لكن كن حذراً فيما ستقوله.

هكذا فقدتُ عزيزين من أسرتي في يوم واحد، ولم يتبقى لي أحد في الدار، فوجب عليّ أن أهاجر من البلد كله، وليس من الموصل فقط، رفقة خطيبتي تيريزا وما تبقى من أسرتها التي منيت بمصيبة كبيرة أيضاً. وحمداً للرب على نجاة أختي ميرنا، التي عادت إلى طفليها وزوجها وقد اجتاح قلبها حزن عميق سيرافقها دون شك أعواماً. لكني لا أظن أنها ستمكث طويلاً قبل التحاقها بنا هي وأسرتها الصغيرة إلى كندا، أو إلى أي بلد غربي آخر يمنحها حق اللجوء، ويحفظ كرامتها ويوفّر لها الأمان، أسوةً بآلاف المسيحيّين الذين سبقوها، رغم أن ذلك يثلج قلوب المتطرّفين السفلة الذين ناصبونا العداء، وأصبح شغلهم الشاغل اقتلاعنا من أرضنا وكأننا طارئون عليها».

يوسف

2006

فاجأني ميران، بعد مرور شهرين على وصوله إلى الأردن، برسالة بعثها إلى مقر عملي في جريدة «طريق الشعب» قال فيها: «عزيزي يوسف، أتمنى أن تحذو حذوي في مغادرة البلد. أنتظرك في عمّان وأنصحك بأن تجلب معك أي دليل يثبت أنك مهدّد لأن ذلك يساعد كثيراً في قبولك لاجئاً».

كنت بالفعل قد تلقيت تهديداً من شخص ينتمي إلى أحد الأحزاب الدينية إثر كتابتي مقالة حول استيلاء حزبه على أملاك عامة في بغداد بعد الاحتلال. وضمّن تهديده، الذي أرسله إلى الجريدة، سيلاً من الشتائم على ماركس ولينين «ومَن لفّ لفّهما من الملحدين»!.

عجّلت رسالة ميران من اتخاذي قرار مغادرة البلد، لكنّ أبي رفض الفكرة في بداية الأمر، وطلب مني أخذ إجازة من العمل، والمكوث في البيت بضعة أشهر، والتوقف عن الكتابة في الجريدة باسمي الصريح إلى

أن يخفّ غلواء صاحب التهديد. بيد أني استطعت، بإصراري، أن أغير رأيه حين أقنعته بأنني سأعود حال حصولي على جنسية البلد الذي سألجأ إليه، وأنّ وجودي في الخارج ربما يُمكّنني من إكمال دراستي العليا.

كان وقوف أمّي إلى جانبي، خوفاً على حياتي، عاملاً مساعداً في اقتناع أبي، فضلاً عن أنها سألته أن يتوسّط لي بالحصول على تأييد مختوم من رئيس تحرير الجريدة يؤكّد صحة التهديد، فلم يرد سؤالها. ويجب أن أعترف بأن ذلك التأييد، الذي لم يزد عدد كلماته عن أربع وخمسين كلمة، كان له مفعول سحري في قبول لجوئي.

كان أبي ولا يزال يفضّل العيش في بلد عربي، لا لشيء إلاّ لأنه لا يجيد لغةً أخرى غير العربية، ويعتقد بأنّ تعلّم لغة جديدة بالنسبة له أصعب من اجتياز بحر المانش سباحةً، لذلك أضاع فرصاً عديدةً للّجوء إلى دول غربية منذ فراره إلى عدن، صحبة الأسرة، عام 1979.

حين هربنا إلى جيبوتي من الحرب الأهلية بين أجنحة الحزب الاشتراكي الحاكم كاد يعرّضنا كلنا للموت في البحر. كنت يومها في سن التاسعة، ولا أفقه شيئاً عن الصراع بين هؤلاء اليمنيين، غير أني أتذكر أصوات إطلاق الرصاص، ودوي الانفجارات، ومشهد بعض القتلى الملقاة جثثهم في الشارع الذي كنا نسكن فيه.

عندما كبرت قرأت ما دوّنه أبي عن تلك الحرب بين الرفاق الماركسيين أنفسهم، وفرارنا ثانيةً إلى جيبوتي ثم إلى سوريا قبل رجوعنا إلى العراق.

يقول أبي في تلك المذكرات:

«انفجر الصراع في 13 كانون الثاني عام 1986 بين أجنحة الحزب الاشتراكي الحاكم في اليمن الديمقراطية الشعبية، وتحديداً قوات الرئيس علي ناصر محمد ومن تحالف معه من الحزب، والجناح الآخر، الذي كان أبرز رموزه علي عنتر، وعبد الفتاح إسماعيل الأمين العام السابق للحزب الاشتراكي.

أخذ الصراع طابعاً مناطقياً بين المنتمين إلى محافظة «أبين» من جهة وبين المنتمين إلى محافظتي «الضالع» و«لحج» من جهة أخرى. كان الرئيس علي ناصر وجماعته قد خطّطوا للتخلّص من الفريق الآخر داخل الحزب، بعد اتهامهم بالتحضير لانقلاب يطيح بالرئيس.

بدأت شرارة الحرب إثر قيام حرّاس الرئيس بتصفية أبرز قيادات الحزب غير الموالية له في اجتماع المكتب السياسي للحزب، وعلى رأسهم علي عنتر المنتمي إلى محافظة «الضالع»، بالتزامن مع اجتماعات، على مستويات أقل، عُقدت في أكثر من مرفق حكومي ومقرات عسكرية وأمنية، جرت فيها محاولات لتصفية المحسوبين على الطرف الأخر.

شملت الحرب والمواجهات كل التشكيلات العسكرية،

وبدأت التصفيات تجري على أساس مناطقي، ودامت حوالي أسبوعين سقط ضحيتها أكثر من خمسة عشر ألف شخص، كان بعضهم من القيادات والكوادر البارزة. وانتهت الحرب بتمكّن الجناح المعارض للرئيس من الاستيلاء على عدن، بينما نزح هو و30 ألفاً من العسكريين والمدنيين الموالين له إلى الشمال.

كان منزلنا في حي «المنصورة» مهدَّداً بالإصابة بقذيفة أو صاروخ في أية لحظة، فاستغلينا ذات ليلة هدوء الاشتباكات في منتصف الأسبوع الثاني من الحرب لنرحل بما نستطيع حمله من ثياب ومتاع بسيط. كانت السيارة التي أقلّتنا إلى ميناء عدن مع أسرة جارنا الفلسطيني سيارةً عسكريةً، دون أن نعرف إلى أي جناح تنتمي.

في الميناء وجدنا مئات النازحين من جنسيات مختلفة، بعضهم عرب وبعضهم الآخر أفارقة، يحاولون الفرار إلى دول القرن الأفريقي. استطعت بشق الأنفس أن أحصل على مكان في قارب قطع مضيق باب المندب إلى مرفأ «أوبوك» الساحلي في جيبوتي. ونجونا بأعجوبة من الغرق بسبب اشتداد هيجان الأمواج في عرض البحر.

وصلنا إلى بلدة «أوبوك» فجراً، وانتظرنا حتى الصباح

لينقلونا إلى مخيم قيل لنا إنه يفتقر إلى أبسط وسائل الحياة. كنت أحمل مبلغاً مالياً جيداً مما ادّخرناه من المعونات، ومن راتبَي زوجتي وابني الكبير، اللذين كانا يعملان في التعليم، فأعطيت رشوةً لأحد المسؤولين في الشرطة ليسمح لنا بالسكن في فندق بالبلدة. كان الفندق يأوي يمنيين تجاراً وأُسراً هاربةً من الاقتتال في عدن ممن كانت أحوالها على قدر من اليسر.

بقينا في تلك البلدة الصغيرة، التي لم يكن يزيد عدد سكانها عن بضعة آلاف نسمة، ثلاثة أسابيع تعرّفنا أثناءها إلى بعض الجيبوتيين، فوجدناهم يحملون طيبةً نادرةً وكرماً شديداً رغم ضعف أحوالهم المعيشية، ثم انتقلنا إلى العاصمة جيبوتي بعبّارة صغيرة عبر خليج «تاجورا». كان أغلب المسافرين الذين رافقناهم من أهل البلد، أما حمَلة الجنسيات الأخرى فلم يكن بينهم إلاّ عدد قليل من اليمنيين النازحين، لأن السلطات الجيبوتية كانت تشدّد إجراءات الانتقال من المخيم إلى العاصمة.

شاءت الصدف أن أتعرّف على ظهر العبارة إلى مهندس جيبوتي اسمه آدم محمود، درس في بولونيا وعمل في بغداد أربع سنوات، ثم عاد إلى أهله عند نشوب الحرب العراقية

الإيرانية. حين اكتشفت أن ميوله يسارية حدثته عن نفسي وعن رفاقي وما عانيناه من قمع وملاحقات أرغمتنا على ترك البلد إلى عدن، حيث استقبلنا فيها أشقاؤنا في الحزب الاشتراكي، وعشنا معهم في أمان سبع سنوات، ودعموا نضالنا وأتاحوا لشبّاننا الدخول في دورات أكاديمية عسكرية ليتخرجوا ضباطاً، ونحن بالمقابل ساعدنا أشقاءنا اليمنيين، بما نمتلكه من الخبرات العلمية والثقافية، إلى أن دبّ الصراع بين الرفاق على المراكز، ودمّروا تجربتهم في بناء دولة اشتراكية مدعومة من الاتحاد السوفييتي. لم يفاجأ آدم بحديثي، فقد كان على دراية كاملة بما قاسيناه على يد السلطة الفاشية.

كان وضع آدم المادي ممتازاً، فهو يمتلك شركة استشارات هندسية بناها من المال الذي جناه من عمله ببغداد، فضيّفنا عشرة أشهر في جناح كامل من داره الواسعة. كان كرمه يفوق التصور، فلم يدعنا ننفق على احتياجاتنا المنزلية فرنكاً واحداً، مردّداً على أسماعنا، كلما شكرناه، أنه لا يفعل شيئاً سوى تسديد جزء من دين عراقي في ذمته. وكانت زوجته المصرية نادية، التي ارتبط بها في بغداد، خير أنيس لزوجتي منال في غربتها هناك.

أحببت أيضاً دماثة أهل العاصمة جيبوتي، الذين ينتمي معظمهم، كما أخبرني آدم، إلى قبيلتين كبيرتين هما «العفر» و«عيسى»، إلى جانب قبائل أخرى أصغر مثل «إسحاق» و«الجادا بورسي». «العفر» من أصول قحطانية يمنية و«عيسى» صومالية، لذا أطلق الفرنسيون على بلدهم، أول الأمر، بلد «العفر والعيسى».

كوّنت صداقات قليلةً مع أشخاص من شرائح مختلفة، لكني لم أكشف لأحدهم أنني معارض هارب من النظام الحاكم في بلدي، بسبب وجود كثيرين، خاصةً العرب، مؤيدين له، شأنهم شأن ملايين العرب، ومتحمّسين للحرب التي يخوضها ضد إيران، بل إن بعضهم كان مستعداً للتطوع في القتال إلى جانبه. عندما كانوا يسألونني عن سبب إقامتي في بلدهم الفقير، بينما العراق بلد خير وفي وضع دفاع عن الأمة، كنت أضطرُّ إلى اختلاق عذر لا علاقة له بالسياسة، فيقتنعون ويتعاطفون معي.

كنت أخشى أن تعلم سفارة النظام بوجودي، فهي لديها بالتأكيد قائمة بأسماء الشيوعيين العراقيين الذين كانوا يعيشون في عدن، وعلى علم بنزوح بعضهم إلى جيبوتي، ولن يتوانى موظفوها المخابراتيون عن إشاعة أسمائهم بين

الناس، إن لم يجندوا جواسيس من أهل المدينة لمراقبتهم وتشويه صورتهم، خاصةً أنها مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن ربع سكان مدينة «الثورة» وحدها في بغداد.

كانت آثار الاستعمار الفرنسي ماثلةً في طابع العديد من البنايات وسط المدينة، كما أن الكثير من المدارس فيها تتبع النظام الفرنسي في التعليم. كان يربطها بأثيوبيا خط قديم للسكك الحديد. وتعيش فيها جالية فرنسية كبيرة يدير بعض أفرادها مشروعات تجاريةً، إلى جانب اليمنيين وعرب من جنسيات أخرى. ومنذ أن أصبحت ميناءً حراً، قبل وصولنا إليها بسنوات، أخذت تتوافر في أسواقها سلع مستوردة من شرق آسيا وأوروبا وأمريكا.

تكثر في وسط المدينة المقاهي والمطاعم التي تشتهر بتقديم وجبة السمك المشوي في التنور والمتبّل بالبسباس (الفلفل الأحمر)، ولولا هذه التتبيلة لكانت تشبه تماماً وجبة السمك المشوي (المسكوف) عندنا في العراق.

روى لي شيخ جالسته في إحدى المقاهي أن سبب تسمية البلد بجيبوتي يعود إلى سلالة من بنات آوى يُطلق عليها «بوتي» تكاثرت في سنة ما بالمنطقة، كانت تنزل من الجبل وتفترس المواشي والأطفال والضعفاء، لذا عزم أهلها على

القضاء عليها، فشنّوا حملةً أدت إلى إبادتها «جب»، وأصبح ما يلي ذلك الجبل يسمى «جب ــ بوتي»!

لم أعرف ما إذا كان صديقي آدم من «العفر» أم من «العيسى» أم من «الاسحاق». كنت أحسّ بالحرج من سؤاله عن هذا الأمر، وكل ما أخبرني به عن نفسه أنه معارض للحزب الواحد المسيطر على السلطة منذ استقلال جيبوتي، وهو حزب الرئيس حسن جوليد، الذي يشكّل أبناء «العيسى» الأغلبية المطلقة من أعضائه، في حين أن السياسيين العفريين، الذين كانوا أصحاب نفوذ قبل الاستقلال، لا يحتلون مناصب حيويةً في الدولة، وليس لهم حزب يعمل في العلن بعدما ألغى الرئيس جميع الأحزاب، عدا حزبه. لهذا السبب كانت قبيلتهم في صراع دائم مع الحكم، رغم أنها ساندت جوليد في بداية الاستقلال على تولي رئاسة الجمهورية!

في نهاية ذلك العام قرر المكتب السياسي للحزب انتقالي إلى بلدة «القامشلي» الحدودية في سوريا، تزامناً مع انتهاء الكفاح المسلح لرفاقنا الأنصار في كردستان ضد النظام الدكتاتوري، إثر هجوم قواته على المنطقة وانسحاب رفاقنا والبيشمركة إلى الحدود.

كان الحزب قد أسّس محطةً في «القامشلي» عام 1979 كونها محاذيةً للحدود العراقية، وأقرب بلدة في الشمال يمكن أن ينقل الرفاق عبرها السلاح، الذي تتبرع به المنظمات الفلسطينية المناضلة، إلى قاطع «بهدينان» وقواطع أخرى في كردستان. ولتنفيذ هذه المهمة شكّل الحزب مفرزةً خاصةً أُطلق عليها «مفرزة الطريق»، كانت تنقل السلاح والعتاد من مخازن الحكومة السورية في «القامشلي»، إضافةً إلى الأدوية والبريد والأموال والمواد التموينية.

كان الحزب يتلقى في بداية العمل الأنصاري مساعدات من الأحزاب التركية الصديقة تتمثل بنقل السلاح والبريد والأنصار والمواد الطبية والتموينية المختلفة وتقديم العون لمفرزة الطريق. وقد قُتل عدد من أعضاء تلك الأحزاب في كمائن للجيش التركي على الحدود.

أخبرت صديقي آدم بقرار الحزب فسهّل سفرنا بالطائرة إلى دمشق، متكرّماً علينا بحجز التذاكر من جيبه، وودعنا حزيناً على أمل أن يلتقينا عندما تُتاح له فرصة زيارة سوريا.

اجتمعت في اليوم الثاني مع رفاقي في الحزب، فوجّهوني إلى ترك أسرتي في دمشق والذهاب وحدي إلى «القامشلي». ورغم أني لم أعتد على مفارقة زوجتي وأبنائي فقد غادرتهم

بعد ثلاثة أسابيع، وباشرت حال وصولي بتنفيذ المهمة التي كلفني بها الرفاق ضمن منظمة الحزب هناك...».

كتب أبي جزءاً من مذكراته هذه في سوريا، ثم أكملها بعد عودتنا إلى العراق. حشته على نشرها في الجريدة بشكل حلقات، أو في كتاب، غير أنه كان يؤجل الموضوع إلى سنوات قادمة، فاستنسختها، دون علمه، وحملتها معي إلى الأردن خشية أن تُتلف أو تضيع في ظرف قاهر.

عند بلوغنا دمشق أقمنا بضعة أيام في فندق صغير، ثم استأجر أبي شقةً واسعةً في حي «البرامكة»، وهو حي مزدحم يقع في مركز المدينة ووسطها، إلاّ أن الوصول إليه والانطلاق منه إلى بقية المناطق سهل جداً.

كانت سعادتي بانتقالنا إلى سوريا لا توصف، فقد أحيا في نفسي أمل العودة إلى المدرسة من جديد، لكن حين عزم أخي الكبير زهير على تحقيق ذلك الأمل واجهته في البداية مشكلة وثيقتي الدراسية، ففي خضم الحرب المجنونة في عدن كان من المستحيل أن نحصل عليها، وبعد مراجعات كثيرة للمسؤولين في التربية قرروا أن يجروا لي فحص مستوى، فنجحت بتفوق ووضعوني في الصف المعادل لسني وهو الرابع الاعدادي.

ظل أبي في «القامشلي» سنتين، لم يكن يأتي إلينا أثناءها سوى مرة في الشهر ليمكث معنا عدة أيام، مشبهاً نفسه بالجندي الذي لا يُسمح له بزيارة أهله إلاّ بإجازة دورية.

استطاع أخواي زهير وأصيل أن يحصلا على عمل في شركة خاصة

بشهادتيهما الثانوية اللتين حصلا عليهما قبل الحرب الأهلية ببضع سنوات. وكانت أختي ندى موهوبةً في التمثيل مذ كنا في عدن، حيث مثلّت هناك أدواراً عديدةً مع مخرجة يمنية وهي طالبة في معهد الفنون. وفي دمشق نمت موهبتها أكثر في المسرح، أولاً، حين شاركت في مجموعة عروض لمخرج عراقي أصبح زوجها فيما بعد، ثم أتيحت لها فرص العمل في مسلسلات تلفزيونية وأفلام سينمائية. إلاّ أنها، للأسف، دفنت موهبتها في الشام يوم لجوئها إلى فلندا هي وزوجها وابنتها الوحيدة في بداية التسعينات.

لم تجد أمي عملاً يناسبها، فتفرغت كليّاً لشؤون البيت ومتابعة تعليمي. كانت تحرص كثيراً على أدائي لواجباتي المدرسية بانتظام، وهي التي غرست في نفسي حب اللغة الإنكليزية، وجعلتني أتفوق فيها على زملائي طوال المراحل التي سبقت دخولي الجامعة، ولذلك تخصصت بها وكنت أحرز المرتبة الأولى دائماً، وأمنّي نفسي بأن أدرّسها في الثانوية بعد التخرج، إلاّ أن تحقيق أمنيتي كان صعباً، فاضطررت إلى إعطاء دروس خصوصية للتلاميذ العراقيين، واستهوتني الصحافة وصرت أكتب بعض المقالات للصحف العراقية المعارضة، وأترجم أحياناً قصصاً ومسرحيات قصيرةً وأنشرها في مجلات أدبية.

اعتقدت بأنني سأحصل على وظيفة مدرّس حال وصولنا إلى بغداد، لكن محاولاتي تعثّرت في أتون الفوضى التي اجتاحت البلد، وبقيت بلا

عمل حوالي نصف سنة، ورفضت عرضاً قدمه لي أحد المعارف بأن أعمل مترجماً مع الجيش الأمريكي، فلجأت إلى الصحافة مرةً ثانيةً، صارفاً النظر عن مهنة التدريس. وفي أشهر قليلة أصبحت محرراً في جريدة «طريق الشعب»، رغم عدم انتمائي إلى الحزب الشيوعي الذي تنطق باسمه، وأخذت أترجم لها تقارير دوليةً ومواد ثقافيةً وأكتب عن قضايا محلية مثيرة.

عمل أخواي زهير وأصيل ببغداد أول الأمر في مهن مختلفة، ثم فتحا مكتباً للعقارات في واجهة منزلنا المطل على شارع تجاري في حي «الكرّادة الشرقية» (وهو المنزل الذي ولدتُ فيه، وسجّله أبي باسم عمتي قبل هروبنا إلى عدن لئلا يُصادر)، وتزوجا في شهر واحد شقيقتين أرملتين ميسورتي الحال، وسكنا في منزل ذي طابقين بحي «المنصور» الراقي، ورثته الزوجتان عن أبيهما. ولولا إلحاح أمي عليهما بالزواج لربما ظلاّ أعزبين، رغم أن الأول كان قد بلغ الأربعين، والثاني بلغ الثامنة والثلاثين. كانت تحاول كثيراً توريطي أيضاً بالزواج من ابنة أختها الصيدلانية، إلاّ أن التهديد الذي تعرضتُ له، وقراري بمغادرة البلد جعلاها تتخلى عن محاولاتها.

ميران

2006

في الذكرى الثانية لاغتيال والدي وأخي حلّ عيد التعميد الذهبي يوم الأحد. قبل ذلك بأيام حصلت على عمل جديد في محل لصياغة المجوهرات، يمتلكه مندائي لاجئ ينحدر من قرية «اللطلاطة» في جنوب العراق، بعد أن سئمت من مهنة توزيع المطويات والنشرات الإعلانية على المجمعات السكنية. كنت مسروراً بعملي الجديد لأنه يريحني من عناء التطواف، ويذكرني دائماً بأبي وبشارع «النهر» في بغداد.

رافقنا أنا وأمّي وأختي سولاف، في ذلك اليوم، عدداً من أصدقائنا ومعارفنا المندائيين إلى نهر «ريدو» للتعميد عند جزيرة صغيرة تتوسطه اسمها «كليفورد ألين». كان الجو مع شروق الشمس ربيعياً، وزقزقة طيور النورس تملأ الشاطئ. أدينا في البداية طقس الاغتسال (الطماشة) للتطهر من الشوائب والنجاسات، ثم ارتدينا ثيابنا الدينية (الرستة) ووضع كلّ منا أكليلاً من الآس في خنصر يده اليمنى، وأجرينا طقس الوضوء

(الرشامة) ودرنا حول الدرفش، ثم تلونا آية (بوثة) رخصة النزول إلى الماء «باسم الحي العظيم، أشرق حقاً ضوءك يا ملك الأثريين، الذي جاء وشعّ على الأثريين...».

كان جمع من الشبّان والشابات، الذين يمارسون الرياضة على الشاطئ، يتطلعون إلينا بدهشة من بين الأشجار، وراح بعضهم يلتقط الصور بهاتفه النقّال، وحين خرجت من الماء سألتني شابة جميلة ذات شعر أشقر مصفف بعناية، ترتدي شورتاً، عما كنا نفعل، فأخبرتها بأننا نؤدي طقساً دينياً، لكن فضولها دفعها إلى أن تسألني مرةً أخرى:

ـ اعذرني، ما اسم ديانتكم؟

قلت:

ـ اسمها المندائية.

ـ أهي ديانة آسيوية؟

ـ لا، إنها ديانة توحيدية قديمة ظهرت في العراق، بلاد ميزوبوتاميا.

ـ ما معتقداتها؟

ـ إنها تؤمن بالله الواحد الخالق الأزلي، وتعتقد بوجود عالمين، عالم مادي هو الحياة التي نعيشها، وعالم آخر هو المأوى الأخير والأبدي للنفس البشرية بعد الموت، فإذا كانت نفساً طاهرةً يكون مأواها عالم تستوطنه النفوس الطيبة المطمئنة، ويسمى عالم الأنوار، وإذا كانت غير طاهرة تذهب إلى الجحيم حيث مقطن النفوس الشريرة، ويسمى عالم الظلام.

ـ يا للغرابة، إنها تشبه ديانتنا كثيراً! هل تقدّسون الماء؟

ـ الماء الجاري فقط مقدّس عندنا ونرتبط به ارتباطاً عقدياً وثيقاً.

أشارت الفتاة إلى مصطبة خشبية على مقربة من احدى الأشجار، وقالت:

ـ ما رأيك أن نجلس هناك؟

سرّني اقتراحها، فمشينا بضع خطوات وجلسنا على المصطبة، كانت تتسع لشخصين فقط بحيث يلتصق أحدهما بالآخر وكأنها مصممة للعشّاق. هبت نسائم منعشة من الجزيرة، فوضعت ذراعي خلف ظهرها وقلت:

ـ نحن نعتقد بوجود صلة بين الماء والخالق وعالم النور.

أدارت رأسها إليّ فلفحتني أنفاسها:

ـ نحن أيضاً نقدّس الماء ونعتبره مصدراً للحكمة.

ـ حقاً؟

سألتها مستغرباً، فقالت:

ـ نعم، ونقدّس معه النار أيضاً.

ـ أنت زرادشتية إذن؟

ـ كيف عرفت؟

ـ في بلدي يعتقد الناس أنكم تعبدون النار ويسمونكم مجوساً.

ـ هذا خطأ، الزرادشتية تعتبر النار قبلةً لها فقط كونها ترمز إلى النور الإلهي. وهي ديانة يعبد معتنقوها إلهاً واحداً مطلقاً خالق كل ما هو حسن في الوجود، ويعتقدون بأن الفاني هو الجسد أما الروح فتهيم ثلاثة أيام بعد الوفاة ثم تعرج إلى السماء، فإذا كان حاملها صالحاً سيخلد في الجنة إلى جانب زرادشت، في حين أن الفاسق سيخلد في النار إلى جانب الشياطين. ويُقال إنها ديانة متأثرة بمعتقدات وتصورات حضارة قديمة نشأت في ميزوبوتاميا.

قلت بنبرة افتخار:

ـ نعم، إنها حضارة عظيمة نشأت في بلادي يُعرف أهلها بالسومريين والبابليين والآشوريين. والمندائية أيضاً متأثرة بها، وتؤمن مثل ديانتكم بأن النفس تظل بعد الموت ثلاثة أيام تتردد بين القبر والبيت، ثم ترحل إلى السماء لتصل إلى محطات الحساب والتطهير.

ـ أمر فظيع! كأن ديانتينا توأم.

ـ ذلك لأن الفكر الديني لأجدادنا مصدر كثير من الأديان، حتى اليهود انتحلوا منه قصص آدم وحواء وجنّة عدن والطوفان والإله يهوه وبعض الأسفار أثناء سبيهم إلى بابل وضمّوها إلى توراتهم.

ـ هذه معلومات مهمة كنت أجهلها.

قلت، بعد أن ساد صمت قصير بيننا:

ـ أريد أن أسألك سؤالاً قد يكون محرجاً.

ـ لا حرج بالتأكيد، اسأل.

ـ أتعتبرين نفسك مؤمنةً بتعاليم ديانتك وتؤدين شعائرها وطقوسها؟

ـ طقوسها وشعائرها لا.

أجابت، ثم أضافت:

ـ لكني أؤمن بتعاليمها التي لا تتعارض وطبيعة حياتي المتحررة هنا وثقافتي المكتسبة، من ذلك مثلاً دفاعها عن الحق، وحثها على الصدق، وتشجيعها على العلم واستعمال العقل والمنطق، وإيمانها بالقناعة، وتفكيرها بالحياة ومصير الإنسان.

أثارتني صراحتها، فسألتها سؤالاً آخر:

ـ هل ثمة ما يمنعك من الارتباط بشخص غير زرادشتي؟

ـ لا أبداً، لكن لِمَ هذا السؤال؟

كنت طبعاً أود الوصول إلى أمر آخر، أن أكسبها صديقةً لي، فقد مضى على وجودي في كندا سنة وعدة أشهر دون أن أحظى بواحدة خاصة أُغرم بها وتُغرم بي، وقد مللت من معاشرة النساء المشاعات، المدفوعات الثمن مثل بطاقات الهاتف النقّال، غير أني لم أشأ أن أكشف عن الأمر، فأجبتها إجابةً ملتويةً:

ـ أردت فقط أن أعرف إن كان يوجد أناس من أتباع الديانات الشرقية متمردون على تعاليم دياناتهم.

ـ نعم، وأعرف منهم كثيرين، بوذيين وكونفوشيوسيين وهندوسيين. لكن قل لي هل تفكّر في أن تحذو حذوهم؟

فاجأني سؤالها، فصمت قليلاً ثم قلت:

ـ لا أدري إن كان ذلك أمراً حسناً.

ـ ها أنت ذا قد شاركت أتباع ديانتك في أداء أحد طقوسها، فهل يبدو لك ذلك أمراً حسناً أم عبئاً عليك؟

نظرت إلى الجزيرة، التي بدت لي أشبه بسمكة عملاقة طافية على سطح الماء، وأجبتها:

ـ بصراحة لا أعتبر هذا الطقس بالذات عبئاً لأنه ينقّي روح المندائي، ويحفظ مدونة أسرارها الخفية وسفر ولادة الماء المقدّس، ويصفي نفسه قبل جسده. وهو بالنسبة لي طقس أستعيد به طفولة التاريخ، وأكتب ذاتي في أطراس الماء.

ـ أنت تتغزل به وكأنك تكتب شعراً.

ـ لِمَ لا؟ في الشعر يكمن جوهر الطقس وروح الأسطورة.

ـ هل ديانتكم معقدة؟

ـ نعم.. إنها كذلك.

ـ لماذا إذن لا تفعل مثلما أفعل أنا؟

ـ كيف؟

ـ أعني تأخذ من ديانتك ما يتوافق وأفكارك ورؤاك وتطرح ما يتعارض جانباً.

ـ فيها ما يتعارض طبعاً مثل أي ديانة أخرى.

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل إيمانها بالتناسخ، والإعراض عن شرب الأدوية الطبية، واعتقادها بأن الرجل غير المتزوج ليس له من جنة لا في الدنيا ولا في الآخرة، وتحريمها الختان بذريعة أن الله خلق الإنسان كاملاً ولايجوز تغيير خلقته.

ـ معنى ذلك أنك لست مختوناً الآن؟

ـ من سوء حظي.

مدّت يدها إلى سحّاب بلوزتها الرياضية الخفيفة وسحبته، من دون قصد، إلى الأسفل فبان جزء من ثدييها العاجيين تحت حمّالة صدرها ـ ربما فعلت ذلك بسبب تعرّقها ـ ثم قالت:

ـ لو كنت مكانك لما تردّدت في الذهاب إلى المستشفى.

ـ في عمري هذا؟

ـ إن أردت أن تسعد المرأة التي سترتبط بك؟

اختلست نظرةً خاطفةً إلى صدرها وفخذيها المشدودين وقلت لها:

ـ سأفكر في الأمر. هل يمكن أن نكون أصدقاء؟

ـ لِمَ لا؟

ـ اسمي ميران، أحمل شهادةً في الفلسفة وأعمل صائغ ذهب.

ـ أنا اسمي آيجون، أحمل شهادة في السينما وأعمل مؤقتاً مصففة شعر.

حدّقت إلى حاجبيها المنسقين بعناية وقلت:

ـ اسمك جميل، ماذا يعني؟

ـ بالتركية معناه يوم القمر.

ـ أصلك تركي إذن؟

ـ أذربيجانية ومولودة في باكو.

ـ أذربيجانية! أنت من بلد الشاعر العظيم نظامي كنجوي؟

ـ سمعت به ولم أقرأ شعره، هل قرأت له أنت؟

ـ قرأت «الحسناوات السبع» فقط من منظومته الصوفية «الكنوز الخمسة».

ـ يبدو أن ثقافتك ممتازة! هل تجد علاقةً بين الفلسفة والذهب؟

باغتني سؤالها، ففكّرتُ برهةً وقلت بحزم:

ـ نعم، كلاهما جوهر نفيس، الأولى من عُصارة العقل والثاني من عُصارة الطبيعة.

ابتسمت ابتسامةً مشعةً أضاءت قلبي، وحدّقت إليّ بنظرة رقيقة تشبه إلى حد بعيد نظرة صبية يافعة، وقالت:

ـ أنت خطير! أعطني رقم هاتفك وسأراك قريباً.

أخذت رقم هاتفي، وودعتني ببشاشة للانضمام إلى رفاقها الذين انتهوا من رياضتهم الصباحية، وأخذوا يغادرون الشاطئ واحداً تلو الآخر، فشيّعتها حتى غابت عن ناظري، وفي داخلي كانت تنبض أمنية مجنونة «ليتها مكثت معي لننزل إلى النهر ونبتدع طقسنا الخاص».

منذ ذلك اللقاء العابر أصبحنا أنا وآيجون أصدقاء، نتواصل بالهاتف والإنترنيت، ورحت أتودّد لها كثيراً وأغازلها أحياناً بتعابير حسية لإثارتها، خاصةً بعد أن اعترفت لي أنها مارست الجنس وهي في الجامعة، لكنها كانت تحرّف ذلك الحديث تارةً وتستنكره تارةً أخرى، قائلةً إن مزاجي شيطاني، بينما هي تريد معرفتي عن كثب، واختبار صدق عواطفي تجاهها أولاً قبل التفرغ للألعاب الإيروسية.

نسيت أن أقول إنني أخذت بنصيحة آيجون وذهبت إلى المستشفى لإجراء عملية الختان. وضعت نفسي في موقف حرج جداً، طبيبة التخدير كتمت ضحكتها وهي تغرسني حقنة المخدّر، فشعرت بالخجل وغطيت عينيَ بذراعي. أما أمي وأختي فقد أخفيت عنهما الأمر، وزعمت أنني أجريت عملية إزالة دمّل.

بعد شهرين فاجأتني آيجون بدعوتي، يوم عطلتها، إلى مطعم «شوشا» الأذربيجاني في شارع «بريستون»، وقد صحبت معها أمّها آيسل، قائلةً إنها ترغب في التعرّف إليّ بعدما علمتْ أنني شاعر. اختارت آيجون مائدةً

أمام واجهة زجاجية تطل على نافورة، وأخبرتني بأن صاحب المطعم أسماه بـ«شوشا» اعتزازاً باسم مدينته «شوشا»، في إقليم «قره باغ»، التي احتلتها أرمينيا.

كان المطعم من الداخل يعطي انطباعاً لزبائنه كأنهم في جاليري من كثرة الصور والرسوم التخطيطية المعلقة على جدرانه، صور ورسوم لآثار تاريخية ومساجد وقصور ونصب تذكارية ومقابر وجسور وأضرحة وحمامات وشيوخ وعجائز بملابس شعبية وشوارع من قلب المدينة.

قدّم لنا رئيس النُدل قائمةً بوجبات الأطعمة فاكتشفت أنها تشبه إلى حد كبير وجبات الأطعمة العراقية، إلاّ أنّ كل صنف منها يحتوي على تفرعات مدهشة، مثل الكباب الذي يتفرع إلى إثني عشر نوعاً من لحوم الضأن والدجاج والسمك والطيور. وكذلك الرز (البيلاو بالتركية) الذي يُطبخ بإحدى عشرة طريقة. أما الملفوف (أو الدولمة) فثمة ما يزيد عن عشرة أنواع أغربها: ملفوف التفاح وملفوف السفرجل وملفوف الحميض، ومثله أنواع مختلفة من السمك المشوي والمقلي والمحشو. لكني تجنبت هذه الأصناف وتفرعاتها السوريالية وطلبت طبقاً من طعام اسمه «دوشبره» بعد أن أخبرتني آيسل بأنه طبق تقليدي أذربيجاني، وما إن وضعه النادل أمامي حتى اكتشفت أنني سبق أن تناولته في عمّان باسم محرّف هو «شيش برك»، ما جعلني أغيّر رأيي وأطلب طبقاً تقليدياً آخر اسمه «قُورما بُزباش».

في ذلك اللقاء حدثتني آيسل عن نفسها وعن هجرتها إلى كندا، حين كان عمر آيجون أحد عشر عاماً، قائلةً:

ـ أنا خريجة معهد الفنون في باكو، كنت ممثلةً سينمائيةً معروفةً في أذربيجان، وشاركت في فيلم روائي لمخرج كندي، تدور أحداثه حول أسرة لاجئة من «قره باغ» إلى أوتاوا، وقد تطلّب التصوير حضوري إلى كندا، لذلك رجوت المخرج أن يسهّل لأبنائي مرافقتي ففعل، وحين انتهى الفيلم جرى ترتيب منحنا اللجوء بحجة غياب الحرية الدينية في أذربيجان، ومخاطر الحرب بينها وبين أرمينيا آنذاك.

سألتها:

ـ هل كانت توجد هناك بالفعل عراقيل أمام الحرية الدينية؟

ـ نعم كانت تقف وراءها أنظمة سلطوية.

ـ معنى ذلك أن التطرّف الإسلامي ليس هو السبب؟

ـ لا، لم يكن هذا التطرف موجوداً في أذربيجان، لكنّ تأثير النظام الشيوعي حتى بعد الاستقلال عن الاتحاد السوفييتي كان لا يزال باقياً، أما أصدقاؤنا ومعارفنا المسلمون فقد كانوا متسامحين وطيبين، أتعرف لماذا؟

ـ لماذا؟

ـ لأن الزرادشتيين يعبدون مثلهم إلهاً واحداً ويصلّون له خمس مرات يومياً.

ـ نحن موحدون أيضاً، ورغم ذلك اضطهدَنا المسلمون في بلدي. وفي إيران لا يعترف بنا الدستور.

كانت آيجون تشتغل في مركز تجميل وتحلم بأن تكون مخرجةً سينمائيةً، إلاّ أنها ترى أن تحقيق حلمها ليس سهلاً، وعليها أن تجد أولاً موطئ قدم لها في هذه الصناعة كي تكتسب الخبرة. كانت تأمل في العمل مع المخرج الذي مثلت أمّها في فيلمه، بيد أن الحظ لم يسعفها، فقد توفي في حادث سيارة قبل تخرجها بأشهر، وحتى أمّها لم تعد قادرةً على إيجاد من يمنحها فرصةً سينمائيةً ثانيةً، فاضطرت إلى العمل ممثلةً في مسرحيات كوميدية، أحياناً في أدوار معقولة وأحياناً في أدوار ثانوية، وهو ما جعلها تندم على ترك بلدها، ولولا إصرار آيجون وأخويها لما بقيت دقيقةً واحدةً في كندا.

قبل أن نغادر المطعم طلبت مني آيجون أن أقرأ قصيدةً، فاخترت من دفتر أشعاري، الذي اعتدت على حمله في حقيبتي الجلدية، واحدةً قصيرةً كنت قد كتبتها منذ أيام، ولها علاقة بالقوقاز، إثر حدوث فيضان عنيف في إحدى المدن القوقازية نتج عنه تحطم أسوار حديقة الحيوان الرسمية، وفرار الحيوانات المفترسة إلى الشوارع والمناطق السكنية.

استحسنت آيسر القصيدة، رغم ترجمتي لها إلى الإنكليزية ترجمةً فوريةً ركيكةً، وفاجأتني بأن زوجها الراحل كان شاعراً أيضاً، له مجموعة دواوين منشورة بالتركية، وقبل أن توافيه المنيّة كتب وصيةً طريفةً أهدى فيها لآيجون جميع أصص الزهور التي كان يعتني بها في البيت، وتنازل لها

عن نصف إيراد مؤلفاته، والنصف الآخر للبلدية كي تحسّن به خدماتها، وعن نسخة نادرة من كتاب «الأفستا» المقدس عند الزرادشتيين، مكتوبة باللغة الروسية، لمكتبة باكو المركزية.

ضحكتُ وقلت في دخيلتي «ربما كان الرجل شاعراً سوريالياً أيضاً».

حين خرجنا من المطعم استوقفت آيجون، وانتظرت حتى تدخل أمّها إلى السيارة فهمست في أذنها:

ـ ذهبت إلى المستشفى ونفّذت نصيحتك.

ـ أي نصيحة؟

ـ أجريت عملية الختان.

ذُهلت آيجون:

ـ فعلتها يا مجنون؟ كنت أمزح معك.

مررت إصبعي على وجنتها وقلت:

ـ ليكن.. أريد إسعاد المرأة التي سأرتبط بها.

أمسكت يدي وضغطت عليها برفق وقالت:

ـ أنت لست سوريالياً فقط، بل إيروسياً أيضاً.

ـ الإيروس جوهر الحب لأنه يمثّل غريزة الحياة. وهو أيضاً الملاذ الأعلى للشعر.

ـ لكن بشرط ألاّ تكون الغريزة اشتهاءً افتراسياً. إلى اللقاء.

تيريزا

2006

مذ شاهدت فيلم «تايتانيك» وأنا أمنّي نفسي بحضور حفلة لمغنية البوب الكندية الأسطورة سيلين ديون. في ذلك الفيلم سحرني صوتها الملائكي الحنون وهي تغني «My Heart Will Go On» على ظهر السفينة، وكأنها حلم رومانسي مجسّد في امرأة عاشقة، وأخذت أجمع ألبوماتها وأضعها إلى جانب سيمفونيات الموسيقيين الكبار. ومما زاد إعجابي بها أنها تحمل قلباً إنسانياً قلّ نظيره في العالم، فهي شغوفة بالأطفال وتغني لهم، وتحب الفقراء وتساعدهم لأنها نشأت في بيئة لازمها الفقر.

ذات يوم قرأت أنها تدعو كتّاب الأغنية في العالم إلى إرسال كلمات أغانٍ جديدة لها، فجال في خاطري أن أخبر ميران بالموضوع، وانتظرته حتى يأتي إلى المطعم لأحثّه على كتابة أغنية وإرسالها إلى عنوانها. كان قد مضى أكثر من شهرين على آخر مرة جاء فيها، انشغل بعمله الجديد وصديقته الأذربيجانية، وحين جاء صدفةً في اليوم التالي فاتحته بالموضوع،

لكنه ابتسم وقال لي «تيريزا، ليس من السهل أن أكتب الشعر بالإنكليزية».

أحياناً كنت أعزف على آلتي لرواد المطعم موسيقى بعض أغاني سيلين فيطربون لها، ويحيوني برفع قبعاتهم أو كؤوسهم. في ذلك اليوم الذي حضر فيه ميران دعتني سيدة خمسينية، أثناء استراحتي، أن أجلس إلى طاولتها. كانت رفقة ابنتها، التي يبدو عمرها دون العشرين، لم أرها من قبل في المطعم. سألتني بلطف إن كنتُ معجبةً بسيلين ديون، قلت لها إنني لست معجبةً بها فقط، بل متيّمةً بأغانيها، فقالت إنها تحبها أيضاً، بينما تفضّل ابنتها أغاني فرقة ميتاليكا الأمريكية، خاصةً ذات الإيقاع السريع الحاد.

ـ يسمونها ثراش ميتال.

هتفت البنت بحماسة، فعلّقتُ:

ـ جميع فرق موسيقى الميتال شيطانية في نظر الكنيسة.

ردّت ببعض العصبية وكأنني مسست مشاعرها:

ـ مالي ورأي الكنيسة! ألبومات هذه الفرق تصرخ ضدّ الظلم في العالم، وتتحدث عن الحقيقة بلا خبث ومواربة.

قالت السيدة لابنتها:

ـ دعكِ من هذا.. الظلم والحقيقة لا يلتقيان.

ثم سألتني:

ـ كم حفلةً حضرتِ لسيلون ديون؟

أجبت بخجل:

ـ للأسف لم يسعفني الحظ أن أحضر لها أي حفلة، لكني أتمنى ذلك.

فطنت السيدة إلى أن لغتي الإنكليزية تشوبها عجمة، فقالت:

ـ اعذريني، هل أنت من أصل عربي؟

قلت:

ـ عراقية، وذلك الشاب زوجي.

أشرت إلى أفرام المنهمك في عمله، فربتت بكفها على يدي، وسألتني بلهجة لبنانية فاجأتني بها:

ـ شو اسمك؟

قلت:

ـ تيريزا صليبا، وزوجي اسمه أفرام.

ـ مسيحيّة لاجئة! أعرف مأساتكم. أنا اسمي سونيا حداد، مسيحيّة أيضاً، وهذه ابنتي كارول.

ـ يسعدني أن أتعرّف إليكما.

ـ اسمك جميل يذكّرني بفتاة اسمها تيريزا هلسا.

ـ غريبة! أنت ثاني شخص يقول لي إن اسمي يذكره بشخصية يعرفها. هل هي شخصية مشهورة؟

ـ نعم، التقيتها مرات عديدةً في «مرجعيون» جنوب لبنان. كانت في

عمر نيكول آنذاك، تنتمي إلى منظمة التحرير الفلسطينية وتتدرب على عمليات فدائية. كنت أنا وأخي أيضاً قد التحقنا إلى المنظمة لنفس الهدف، إلاّ أن أبي أصرّ على عودتنا إلى بيروت لمواصلة دراستنا. كانت تيريزا من أب أردني وأم فلسطينية. ولدت وعاشت في مدينة «عكا» التي انتقل إليها والداها قبل النكبة، ومن هناك شدّت رحالها مشياً إلى «مرجعيون».

بعد عودتنا أنا وأخي إلى بيروت سمعنا أنها اختطفت مع آخرين طائرةً قادمةً من بروكسل إلى مطار «اللّد» عام 1972، وطالبت بإطلاق أسرى أردنيين وفلسطينيين معتقلين في إسرائيل، لكنّ العملية لم تنجح وجُرحت وقُبض عليها. فيما بعد علمت أنها ظلت معتقلةً إلى أن أطلق سراحها عام 1983 في صفقة تبادل ونفيت إلى الجزائر. لم تمكث هناك طويلاً، فغادرت إلى بلدها الأردن. وهي التي أطلقت النار في تلك العملية على رئيس الوزراء الإسرائيلي الحالي نتنياهو، عندما كان ضمن الجنود الذين هاجموا الطائرة في المطار، وأصابته في كتفه.

ـ يا لها من مغامِرة، أنا لا أستطيع اختطاف عصفور، بل أكره هذه المسألة كرهاً شديداً.

ـ لكن بالنسبة لها كانت مسألةً مشروعةً.

أردت أن أقول للسيدة سونيا إن أي عملية اختطاف مؤلمة بالنسبة لي لأنها تذكرني باختطاف أبي، إلاّ أنني غيرت الحديث وسألتها:

ـ منذ متى جئت إلى كندا؟

ـ منذ ربع قرن.

ـ عمر طويل، ماذا تعملين؟

ـ أعمل أمينة مكتبة عامة في «ألتا فزتا».

ـ يا للصدفة! أنا أذهب كل سبت إلى المكتبة العامة القريبة من بيتنا.

ـ في المرة القادمة تعالي إلى مكتبتي.

ـ سآتي حتماً.

ارتشفتْ ما تبقى في كأس البيرة دفعةً واحدةً وسألتني:

ـ من أي منطقة في العراق؟

ـ من الموصل.

ـ في الشمال! زرتها مرتين قبل أربعين سنة.

قلت بلهفة:

ـ هل تتذكرين شيئاً من معالمها آنذاك؟

هزّت رأسها متأوهةً:

ـ هل تغيرت الآن؟ أتذكر «الحدباء».. أطلالها وأسوارها القديمة.. الجسر الحديدي.

كادت عيناي تدمعان لكني تمالكت نفسي وقلت:

ـ هل زرتها للسياحة؟

شزرت السيدة سونيا امرأةً تجلس على مقربة منا، في منتصف الثلاثينات

من عمرها، قصيرة ذات وجه ممتلئ شاحب وملامح لاتينية، كانت طوال الوقت تلوح لي بحركات غريبة أو ترفع كأسها، وأنا أعزف، ثم التفتت إليّ وأجابت:

ـ نعم، كنت حينها صبيةً أعيش مع أهلي في بغداد. أبي كان قنصلاً في السفارة اللبنانية هناك. مكث في وظيفته سنتين ثم عدنا إلى بيروت. وقتها كانت المغنية العظيمة سليمة مراد في عمري الآن، ولا تزال بعض أغانيها عالقةً في ذهني، لم يكن يمر يوم واحد دون أن تبثها الإذاعة: خدري الشاي، يا نبعة الريحان، هذا مو إنصاف منك، على شواطي دجلة، وغيرها ما عدت أتذكرها.

ـ وزوجها ناظم الغزالي، ألا تتذكرين بعضاً من أغانيه؟

ضربت براحة يدها على جبينها وقالت كأنها تؤنب نفسها:

ـ يا يسوع! كيف نسيت؟ طبعاً طبعاً، عيرتني بالشيب، يا أم العيون السود، أيَّ شيء في العيد أهدي إليك يا ملاكي... لقد توفي قبل ذهابنا إلى بغداد ببضع سنوات.

ـ يُقال إن مغرضين اتهموا حينها سليمة بأنها هي التي قتلته، لكن الدلائل اثبتت عكس ذلك، وكانت وفاته بداية انتكاسة لها.

ـ ربما كان عملاء للموساد وراء ذلك ليرغموها على الهروب إلى إسرائيل بعد أن رفضت الرحيل بمحض إرادتها.

كان صوت السيدة سونيا دافئاً وهادئاً وهي تتحدث عما بقي في

ذاكرتها من أيامها ببغداد، فأثار جرسه في نفسي شعوراً بالراحة والإلفة وكأنني أعرفها منذ زمن طويل. بعدئذ طلبت مني أن أحدثها عن نفسي وعن علاقتي بالموسيقى وشغفي بسيلين ديون، لكني استأذنتها لأعزف شيئاً لرواد المطعم ثم أعود إليها، وقد تعمدتُ أن أفاجئها بعزف موسيقى «يا نبعة الريحان»، دون وجود نوطة مكتوبة أمامي. كان الأمر صعباً إلى حد ما، بيد أنه كان محاولةً أثارت شجون السيدة سونيا وجعلتها تتمايل مع النغمات مثلما استلطفها الآخرون لغرابتها، عدا تلك المرأة التي تجلس على مقربة منها فقد بدا عليها أنها ثملة، أخذت تدمدم بكلمات متقطعة غير مفهومة وهي تنظر إليّ بنظرات شبقة.

حين رويت للسيدة سونيا ما جرى لنا في الموصل أطرقت رأسها، وأسبلت جفنيها لتحبس دموعها، وظلت تحدق إلى أصابع يدها كأن طلاء أظافرها سيتبخر. كان واضحاً أنها قد استبدّ بها إشفاق ينوء بحمله قلبها. بعد دقائق سألتني أن أعطيها رقم هاتفي النقال فحفظته في هاتفها، وودعتني قائلةً إنها ستتصل بي قريباً.

راقبتها وهي تخرج من المطعم فإذا بها تتجه إلى سيارة حديثة بيضاء اللون وتفتح بابها وتدلف إلى داخلها. كان الوقت قبيل الغروب والجو في الخارج مثلجاً، فانتظرتْ بعض الوقت حتى تدفئ السيارة وينزاح الثلج عن زجاجها، ثم قادتها على مهل وانعطفت إلى الشارع الرئيسي. بعدها عدت إلى آلتي لأواصل عزفي وفي خلدي يجيش إحساس بأن تلك

السيدة فكّرت في أمر ما يفيدني أنا وحبيبي أفرام، لكني ما إن أردت أن أشرع بالعزف حتى نهضت المرأة الثملة من مقعدها وهجمت عليّ مثل ثور هائج، وأخذت تقبّلني من شفتي وتدعك ثدييّ وهي تصرخ بصوت متهدج «أنت عسل.. أنت عسل.. أريدك لي»، لكن أفرام وميران وبعض رواد المطعم أسرعوا إلى انتشالي منها ودفعها إلى الخارج. وسمعت أحدهم يقول لي صائحاً «دعك منها وواصلي عزفك، إنها مجنونة»، وعارضه آخر قائلاً «لا لا، إنها ليست مجنونةً بل ثملةً»، فردت عليهما عجوز تجلس في الزاوية القصية من المطعم «ما هذا الهراء يا أغبياء؟ إنها سحاقية رخيصة وكفى».

منذ ذلك اليوم حظر مدير المطعم ارتياد تلك المرأة، لكنها ظلت بعد ذلك حوالي مدة شهر تأتي ولا تجرؤ على الدخول، تظل واقفةً في الخارج بضع دقائق، تلوّح لي بيدها أو بقنينة «بيسكو»(*) من خلف الزجاج وترسل قبلات في الهواء ثم تمضي إلى حال سبيلها.

بعد مضي أسبوع على تعرفي إلى السيدة سونيا زرتها في المكتبة التي تعمل فيها، وحكيت لها ما جرى بعد خروجها من المطعم، فتأسفت لأنها لم تحذرني من تلك المرأة، وقالت إنها كانت منزعجةً منها ومدركةً أنها شاذة يجول في بالها هاجس سخيف، إلاّ أنها لم تتخيّل بلوغ وقاحتها إلى هذا الحد.

أثناء بحثي في رفوف الكتب عثرت على كتاب بالعربية أثار عنوانه

(*) خمر مقطر تشتهر به تشيلي والبيرو.

فضولي «الحركة النسوية وخلخلة المجتمعات الإسلامية»، قرأت مقدّمته فإذا بها تقول إن الفكر النسوي، الذي ينطلق من تمجيد الأنثى، فكر منحرف يقوده الشيطان، بدأ أوله في دول الغرب النصراني والشرق الإلحادي، ثم أخذ الآن يتقدم نحو بلادنا الإسلامية، وينبغي أن نقاومه!

حملت الكتاب إلى السيدة سونيا وسألتها:

ـ من أين حصلتم على هذا الكتاب؟

قالت:

ـ جميع الكتب العربية في المكتبة مهداة من أشخاص ذوي أصول عربية.

ـ لا بدّ أن الشخص الذي أهداكم هذا الكتاب إسلامي متشدّد.

ـ لماذا؟

ـ إنه كتاب معادٍ للمرأة ويعتبر فكرة تحررها نبتاً شيطانياً.

ـ ليقل ما يشاء مَن يهتم بأمره؟ منذ آلاف السنين جاهر الربّ في العهد القديم باحتقار المرأة وهو يطردها من الجنة، وقرّر أنها ستكون ذليلةً للذَكَر الذي سيسود عليها في الأرض.

ثم تناولت الكتاب من يدي وقلّبت صفحاته وقالت:

ـ أنظري، لم يستعره أحد حتى الآن.

خرجت من المكتبة وأنا أفكر فيما قالته السيدة سونيا عن مجاهرة الربّ باحتقار المرأة، وظل ذهني منشغلاً مدةً طويلةً بفكرة أن الذكورية التي تتسيد على المرأة قد وشحت برداء إلهي، ولو كان أبي حيّاً لجادلته حولها.

سامان

2007

تمنيت لو أن فرهاد جاء إلى أوتاوا لأقدّم له الرعاية التي يستحقها، لكن الحظ أبعدنا عن بعض حين شاء أن تمنح هولندا حق اللجوء لأسرة خالته بعد مجيئي إلى كندا بسبعة أشهر. أخبرني بذلك في نفس اليوم الذي أعلمهم مكتب المفوضية بالنتيجة، وبقيت أتواصل معه بالهاتف مذ وطأت قدماه مدينة لاهاي، ثم التقيته هناك إثر حصولي على الجنسية الكندية سنة 1995.

قبل مغادرته اسطنبول كنت أتصل به أسبوعياً لأطمئن عليه، فكان يبدي لي تذمّره من السلوك العنصري الذي يمارسه بعض الأتراك مع الكرد في الأماكن العامة ووسائل المواصلات. وحال وصولهم إلى لاهاي اتصل بي وأعطاني عنوان السكن في حي الرسامين.

استقبلني في المطار رفقة كامران زوج خالته، فإذا بملامحه قد تغيرت، أصبح فتى بالغ الحيوية كالزئبق، ووسيماً ذا شاربين خفيفين، وعينين متألقتين غاب عنهما الحزن القديم، وقطع شوطاً جيداً في الدراسة، وصار

يرطن بالهولندية كما لو أنه مولود هناك. سمعته يتكلم بها أول مرة عندما حيّته صبية جميلة وتبادلت معه حديثاً قصيراً أثناء خروجنا من بوابة المطار. قال لي إنها صديقته في المدرسة، وقد جاءت لتودع أمّها المسافرة إلى باريس.

في طريقنا إلى البيت سألت فرهاد متعمداً:

ـ أيهما أفضل لاهاي أم اسطنبول؟

أجاب على الفور دون تفكير:

ـ لاهاي طبعاً.

وأضاف بعد أن تطلّع من نافذة السيارة إلى متنزه «مادورودام» الذي يضم نماذج مصغّرة من المعالم العمرانية والطبيعية:

ـ هنا الناس يحترموننا جداً، لا أحد منهم يسأل ما هو أصلك ولا فصلك ولا دينك، بينما هناك كنت أسمع أشخاصاً يسيئون إلينا بعبارات تحقيرية، وينعتوننا بالمتمرّدين تارةً وبالجبليين الأوغاد تارةً أخرى.

قلت:

ـ أنا عانيت أكثر منك حين عبرت الحدود، وأُهنت مرات عديدةً. في اسطنبول كانوا يرغمونني على الذهاب يومياً إلى مركز الشرطة لأثبت لهم أنني موجود في محل إقامتي ولا أمارس نشاطات معاديةً. كنت أمكث ساعتين أو ثلاث في العراء بانتظار أن ينادوا على اسمي، وحين أنتهي من التوقيع يطردونني كالكلب.

صمت فرهاد برهةً ثم تأوه وقال:

ـ لكنّ ما بدر منهم يهون أمام ما فعله الأنذال من أبناء جلدتنا.

أدرت رأسي إليه وقلت:

ـ لا تهتم يا عزيزي، الله سينتقم منهم.

لكنه ربت على كتفي مثل رجل بالغ، وقال بحزم:

ـ بل أنا الذي سأنتقم.

سألته مستغرباً:

ـ كيف؟

قال:

ـ يوما ما سأذهب إلى «كَلار» وآخذ بثأر أهلي.

ذُهلت مما كان يدور في رأس فرهاد، وتساءلت مع نفسي «من زرع فكرة الثأر في رأسه؟»، وخمّنت أن كامران هو مَن فعل ذلك، فنظرت إليه نظرةً خاطفةً، لكنه لم يشعر بها وهو يقود سيارته مركزاً بصره على الطريق، ورحت أتطلع إلى معالم لاهاي التي بدأت تغرق تحت أشعة الغروب. بعد بضع دقائق عاد فرهاد إلى الموضوع نفسه، لكنه حوّل اتجاهه إلى كندا:

ـ هل يوجد تمييز فيها؟

ـ لا طبعاً.. ناسها محترمون وطيبون جداً.

ـ ماذا عن الكرد، أيوجدون بكثرة؟

ـ نعم، لاجئون من أجزاء كردستان الستة.

قال مستغرباً:

ـ أول مرة أعرف أن كردستان تتكون من ستة أجزاء.

ـ هي كذلك، مثل ابن له ست أمّهات وهو يريد أمّاً واحدةً.

ـ كنت أعرف أنها ثلاثة أجزاء فقط موزعة على العراق وتركيا وإيران.

ـ أضف إليها سوريا وأذربيجان وأرمينيا.

ـ شيء فظيع.

ـ نحن يا فرهاد أمة يتيمة مزقتها أنياب الجغرافية وجعلت تاريخها أشلاءً تتقاذفها الرياح.

ـ يا لتعاستنا! هل سنظل أيتاماً إلى الأبد؟

ـ لا أظن.

يُعدّ حي الرسامين، الذي تقيم فيه أسرة خالة فرهاد، من الأحياء الشعبية في لاهاي، تقطنه أغلبية من ذوي الأصول الأجنبية، مغاربة وعراقيين وأتراك وصوماليين وإيرانيين وغيرهم، وقد سميّ بهذا الاسم لأن شوارعه وساحاته العامة تحمل أسماء أشهر الرسامين الهولنديين مثل فان كوخ، ويوهانس فيرمير، ورامبرانت فان راين، ومايندرت هوبما، وبيت موندريان.

كانت الشقة التي تسكنها الأسرة تتكون من ثلاث غرف نوم: واحدة

للزوجين، والثانية لابنتيهما نارين وبرواس، والثالثة لابنه دلاوَر وفرهاد، لذا كان لا بدّ أن أقيم في فندق، رغم إلحاح كامران عليّ بأن أشارك فرهاد في غرفته، بينما ينام دلاوَر مؤقتاً في الصالة. حجزت في فندق صغير وبسيط يقع على مبعدة حوالي ثلاثة كيلو مترات عن الشقة، وهو من النوع الذي يكون مالكوه مسؤولين عن كل شيء فيه، تديره سيدة خمسينية من أصل بولندي اسمها كاتاجينا، وتعمل أختها العانس أولغا وابنتاها الشابتان مارتا وإيرينا وابنها المراهق بونيك على خدمة الزبائن في صالتي الاستقبال والطعام والمطبخ والغرف، ويتولى عاملان لاجئان من أثيوبيا مسؤولية النظافة.

كانت السيدة كاتاجينا تتحدّث اللهجة المصرية بلكنة أجنبية، قالت إنها تعلمتها في القاهرة أثناء إقامتها بضع سنوات هناك مع زوجها الراحل، الذي كان يعمل مهندساً في شركة للبتروكيمياويات، ولذلك لم أجد صعوبةً في التخاطب معها. أما ابنتاها فلم تكونا تجيدان منها سوى بعض الجمل والألفاظ الترحيبية، لكنهما تستطيعان التفاهم مع الزبائن باللغة الفرنسية، التي كنت أتكلم بها على نحو لا بأس به بحكم عملي في دائرة الهجرة.

لازمني فرهاد طوال الأيام العشرة التي قضيتها في لاهاي. كان الوقت خلال العطلة الصيفية للمدارس، ولم يكن يبرح الفندق إلى بيت خالته إلا بعد الغروب، عدا ذلك كنا في ساعات النهار نتجول وسط المدينة، في

ظلال بناياتها المبهرة التي يشكّل طرازها خليطاً متناسقاً من عمارة القرون الوسطى والقرن التاسع عشر والأنماط المعمارية الحديثة، ونرتاد الأماكن الترفيهية، أو نذهب إلى متنزه «مادورودام»، وساحة «ماليفيلد» الواسعة لحضور الفعاليات الاجتماعية والأسواق الموسمية فيها، أو نتسكّع عند بركة الحرم البرلماني، وعلى ساحل بحر الشمال في منطقة «اسخيفيننغن».

في احدى المرات حضرنا صدفةً احتفالاً غريباً يطلق عليه الهولنديون «يوم الأمير»، تتجه فيه الملكة من القصر الملكي إلى مقر البرلمان بعربة ذهبية تجرها الخيول، في موكب ملكي مهيب يحفه جنود بملابس عسكرية تاريخية. كان الاحتفال بالنسبة لفرهاد مألوفاً، فهو يُنظّم، كما أخبرني، سنوياً في الثلاثاء الثالثة من شهر أيلول كل عام، وحين تصل الملكة إلى البرلمان تلقي في قاعة الفرسان خطاب العرش أمام حشد من كبار شخصيات الدولة والدبلوماسيين الأجانب المعتمدين لدى بلاطها.

كنت وقتها لا أزال أعزب، وقد أخذت لوعتي على فقد شيلان تخفت تدريجياً، رغم أنها لم تغب عن ذاكرتي، ولم تمحِ السنوات ما خطته يدها على شجرة الحور، وصرت لا أستطيع مقاومة رغبات نفسي في إقامة علاقات عابرة مع بعض النساء إلى أن أحظى بزوجة مناسبة. أول علاقة أقمتها كانت قبل سفري إلى هولندا بحوالي سنة. كنت أسكن رفقة صديق كردي اسمه هلمت في شقة واحدة، كان شاباً طيب القلب وخدوماً، يعمل ميكانيكياً في تصليح السيارات، وصاحب علاقات واسعة مع نساء يصطادهن في

ورشته، نساء من أصول مختلفة يأتين إليه لإصلاح سياراتهن، غير أنه كان يفضّل التركيات أكثر من غيرهن اعتقاداً منه بأنه ينتقم، حين يضاجعهن، من الأتراك الذين قتلوا بعض أفراد أسرته في ولاية «هكاري».

في احدى المرات دعا هلمت فتاتين جميلتين إلى الشقة لقضاء سهرة في عطلة نهاية الأسبوع، كانت واحدة تركية والثانية رومانية، جاءتا في ليلة شتاء قارسة، وقال لي بالكردية، وهو يقدّم لي الرومانية:

ـ كفاك مثاليةً يا صاحبي، إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة.

قلت:

ـ هي كذلك بالنسبة لك.

ـ وبالنسبة لك أيضاً، ما رأيك بهذه اللوزة؟

ـ جميلة طبعاً.

ـ أقسم بالله ستذوب تحت لسانك مثل قطعة حلوى.

تظاهرت أول الأمر بالتمنّع، لكني سرعان ما استسلمت أمام إغراءات أنوثتها المتفجرة وهي تتمايل شبه عارية في رقصة مجنونة. كان اسمها إيرينا، بيضاء ناعمة البشرة، ذات مؤخرة مشدودة ومكتنزة تشبه ثمرة الكمثرى تزيّنها وشوم فراشات وورود ملونة. ضاجعتها مرتين في سهرة امتدت حتى الصباح، فوجدتها شبقةً وشرهةً تُستثار بسرعة.

حين همّت إيرينا بالمغادرة سألتها:

ـ هل تعرفين قسطنطين جيورجيو؟

فتحت عينيها على وسعهما، وقالت:

ـ لا، أهو صديقك؟

أشعرني ردها بأن سؤالي كان فيه شيء من البلاهة. قلت:

ـ لا عليك، ظننت أنك سمعت به أو قرأت عنه.

ـ لا بدّ أنه شخص مشهور، هل هو نجم سينمائي أم لاعب كرة قدم؟

ضحكت، وقلت:

ـ لا هذا ولا ذاك، إنه روائي روماني شهير كتب روايةً عظيمةً اسمها «الساعة الخامسة والعشرون»، أحدثت ضجةً في أوروبا.

ـ هل تتحدث عن الجنس؟

ـ لا، إنها رواية مخيفة وخارقة تتحدث عن بشاعة الحروب والمعتقلات والتعذيب والحزن الإنساني القاتل. لكنّ رغبة دركيّ وغد في مضاجعة سيدة جميلة كانت سبباً في المحن التي عانت منها هي وزوجها المسكين.

ـ كان عليها أن تلبّي رغبته وينتهي الأمر.. على أية حال أنا للأسف لست مهتمةً بقراءة الروايات.

ـ بماذا تهتمين إذن؟

ـ أستمتع باشياء كثيرة في الحياة.

أفحمني ردّها، فقلت:

ـ ربما أنت محقة يا إيرينا.

ابتسمت واتجهت إلى الباب، وقبل أن تفتحه التفتت إلي وسألتني:

ـ ما معنى الساعة الخامسة والعشرون؟

اقتربت منها وأحطت عنقها بذراعي وطبعت قبلةً على شفتيها، وقلت:

ـ إنها الساعة التي تأتي بعد الساعة الأخيرة.

ـ هل هي لغز؟ لم أفهم شيئاً.

ـ لا ليست لغزاً، إنها الساعة التي لن يجدي فيها فتيلاً قيام مسيح، لأن المخلوق البشري صار بين إيدي وحوش.

ـ هذا ما أراد أن يقوله جيورجيو؟ يا له من متشائم.

لم أحر جواباً أردّ به عليها، فاكتفيت بأن لوّحت لها بكفي مودعاً، وبادلتني هي أيضاً بتلويحة وقالت:

ـ كانت سهرةً لذيذةً، تمنيت لو أنها طالت خمساً وعشرين ساعةً. ليتها تتكرر.

التقيت إيرينا بعدئذ مرتين، ثم غابت فجأةً. ذات يوم اتصلت بي من فانكوفر على المحيط الهادي لتخبرني بأنها حصلت هناك على عمل مريح ومربح جداً، ولن تتمكن من العودة إلاّ بعد سنوات، فتمنيت لها السعادة رغم جوعي لها. بعدها عاشرت عدة نساء بترتيب من هلمت، إلاّ أنني بقيت أتوق إلى طعمها الخاص، وأتذكرها كلما طرق سمعي اسم قسطنطين جيورجيو أو الساعة الخامسة والعشرون!

عندما وقعت عيناي على مارتا ابنة صاحبة الفندق في لاهاي وجدت شبهاً كبيراً بينها وبين إيرينا، باستثناء أن مؤخرة هذه بالغة الخطورة، مستديرة ومنتفخة في استدارتها كأنها بالون مملوءة بالماء، فسعيت إلى خطب ودها بشتى الطرق، مردداً مع نفسي المثل الصيني الذي يقول «من يود إغراء امرأة عليه اجتياز الجبال»، إلى أن أفلح مسعاي في اليوم الرابع من سفرتي، ولولا التزاماتي في العمل بأوتاوا لبقيت مدةً أطول مستغرقاً في لقاءاتي الحميمة معها.

لم تستجب لي مارتا إلاّ حين دعوتها ذات ليلة لمرافقتي إلى أحد المراقص. عدنا في ساعة متأخرة إلى الفندق وكانت ثملةً إثر تناولها كؤوساً من «الأوزو» اليوناني المسكر، الذي ورّطتها في شربه، بينما كنت أنا منتشياً بقليل من نبيذ الراين، مفتوح الشهية لجسدها. وجدنا الجميع نياماً فأخذتها إلى غرفتي لإكمال السهرة.

في الليالي التي تلتها صارت مارتا تأتي إليّ، بعد ذهاب فرهاد، بملاحة فراشة، حاملةً مشغّل أقراص سيدي يبث موسيقى إيروسية، وتمكث بين أحضاني حتى مطلع الفجر، ثم تغادر متوّجةً بلذة غامرة.

أفرام

2007

مثلما توقعت، لم تستطع أختي ميرنا وزوجها جورج أن يتحملا مزيداً من الرعب الذي زرعه مطايا التطرّف في الموصل باستهدافهم المسيحيّين وتهديدهم بالزوال، ففرّا مع طفليهما إلياس ومريم إلى سوريا بعد مرور سنتين على مغادرتنا، ومن هناك طارا لاجئين إلى ديترويت.

كان وضع البلد في حينها (2006) قد وصل إلى الحضيض، سعار عبثي بين مجانين الطائفتين المسلمتين، كل طرف منهما مدنّس بكراهية الآخر، ويحاول محوه بعمليات إرهابية ومواجهات مسلحة وحشية، وكأن عالمها لا يتسع إلاّ لطرف واحد فقط، بحيث سقط ما يزيد على ثلاثين ألف قتيل مدني من الطرفين. في أتون ذلك السعار كانت محنة أبناء جلدتي المسيحيّين قد استفحلت في مناطق مختلفة من البلد، وباتت حياتهم جحيماً لا يُطاق، الكنائس تتعرّض إلى التفجير والتخريب، ورجال الدين وأساتذة الجامعات لا يأمنون على حياتهم من عمليات الخطف والاغتيال

بعد تلقيهم رسائل تهديد. وكان جورج واحداً من أربعة أساتذة مسيحيّين في كلية التربية وضعوا له رسالةً من هذا النوع تحت ماسحة زجاج سيارته.

كتب لي جورج رسالةً وهو في دمشق قال فيها: «أخيراً يا أفرام اضطررت إلى هجر الموصل، مدينتي التي أعشقها، كما تعلم، ولا أستبدلها بأجمل مدن الدنيا. ربما لن تتاح لي مستقبلاً فرصة العودة إليها لزيارة قبرَي والديّ وإضاءة الشموع لذكراهما، ولا التجوّل في عوجاتها وأزقتها، أو تناول أرغفة اللحم بالعجين في باب الطوب، أو التبضّع من سوق الأربعاء، أو شرب استكان شاي في أحد مقاهي باب الجديد. لقد غادرتها مكرهاً كي لا يصبح إلياس ومريم يتيمين، وكنت أعتقد واهماً بأن هروبك منها إلى أوتاوا نوع من الجبن، أما الآن فإنني أشد على يديك، بل كان يجب أن تفعلها أنت وأهلك قبل أن يقع الفاس بالرأس..».

ومضى جورج قائلاً في رسالته: «أريد أن أُضحكك، قرأت اليوم في الإنترنيت عموداً صحفياً لكاتب عراقي يقول فيه «عندما أسمع سياسي عراقي يهتف «كلنا مسيحيّون» تتبادر إلى ذهني صولة قوات سوات(*) على النوادي الاجتماعية المسيحيّة، وعندما أسمع أحداً يهتف «كلنا شركاء في الوطن» أتخيّل صاحب الصوت وهو يقول لمسيحي جاره «ما الذي

(*) سوات (S.W.A.T) هي مختصر الأحرف الأولى من اسم قوة الرد السريع باللغة الإنجليزية (Speed Way of Attack Team)، وقد تأسست في فترة الاحتلال الأمريكي للعراق لتمارس نفس دور ما يسمى بـ«فرق الموت»، ثم رُبط تمويلها بوزارة الدفاع العراقية.

يبقيكم هنا، لماذا لا تلتحقون بأقاربكم في السويد أو في كندا؟»، وعندما أسمع أحداً يهتف «تحيا الأخوّة الإسلامية المسيحيّة» أسأل على الفور «كم عدد المسيحيّين المتبقين في العراق؟». يا له من كاتب شريف.

صدّقني يا أفرام تمنيت أن نأتي إلى كندا، لكن ليس في أيدينا حيلة، فقد تكرّمت علينا حكومة العم سام باللجوء إلى أراضيها، بينما كانت، يا للمفارقة، هي السبب في مآساتنا».

وختم جورج رسالته قائلاً إنه سيحاول الحصول على إذن الإقامة في مدينة «ماسينا» الصغيرة بولاية نيويورك لقربها إلى أوتاوا.

لم تنجح محاولة جورج فرضخ للقبول بخيار ديترويت، آملاً أن ننتقل نحن إلى مدينة «وينزر» المجاورة لها، حيث سيكون بمقدورنا أن نتزاور متى ما نشاء. وبالفعل بدأنا نخطط للأمر، خاصةً أن وينزر تابعة لولاية أونتاريو التي نتبع لها، وسيخفف انتقالنا إليها قليلاً من الإزعاج الذي كان يسببه لنا ثلج أوتاوا الغزير في فصل الشتاء، خاصةً عندما يبدأ بالذوبان في الأيام المشمسة، سارقاً الحرارة من جسد المدينة بلا رحمة، تاركاً أسناننا تصطك من شدة البرد. واشترطت تيريزا أن ترافقنا أمّها وأخواها بهنام وفاديا.

كان علينا أولاً أن نستكشف المدينة، ونتأكد من وجود فرص عمل فيها، فقصدناها ومكثنا خمسة أيام في فندق اسمه «النجوم» أثناء عودتنا من رحلة قمنا بها إلى ديترويت لزيارة أختي. لقد خيّل إلينا ونحن نعبر

جسر «أمباسادور» المعلّق، الذي يربط بين المدينتين، أننا ننتقل من الساحل الأيمن إلى الساحل الأيسر في الموصل عبر أحد جسورها.

الفندق الذي أقمنا فيه له واجهة زجاجية عريضة على الشارع ذات ألوان بديعة تعطيه إيقاعاً بصرياً ملفتاً للنظر، وكان الأكثر طرافة بين فنادق المدينة، فهو اسم على مسمى كما يُقال، يمنح زبائنه فرصة الاستمتاع بحياة تشبه حياة مجموعة من نجوم كندا، حيث تحمل كل غرفة من غرفه الثلاثين اسم فنان أو رياضي أو أديب مشهور، ويعكس تصميمها الداخلي من ألوان وأثاث شخصية النجم الذي سميت باسمه مثل: المغنية سيلين ديون والمخرج السينمائي جيمس كاميرون والنحات بيل ريد ولاعب كرة السلة براين جانغن والروائي داني لا فريار والشاعرة مارغريت أتوود. أنا وتيريزا لم نكن نعرف سوى سيلين ديون وجيمس كاميرون، وكان من الطبيعي أن تختار تيريزا الغرفة التي تحمل اسم مغنيتها الأثيرة إلى نفسها.

أخفقنا أثناء الأيام الأربعة الأولى في العثور على عمل، رغم أننا قصدنا العديد من المطاعم والحانات والمتاجر وحتى محطات الوقود. الجميع كانوا يطلبون منا أن نترك لديهم سيرتنا المهنية ورقم هاتفنا، فكنا نلبي طلبهم على مضض ودون أمل.

في صباح اليوم الخامس، وهو اليوم الذي كنا قد قررنا فيه أن نغادر المدينة مساءً، تعرفت صدفةً في بهو الفندق إلى رجل أشرف على الخمسين، ذي شعر مطلي بلون أسود فاحم، في وجهه آثار جدري قديم وأنف معقوف كمنقار نسر وشاربان حليقان، يعرج قليلاً في قدمه اليسرى.

سمعته يقول لموظف الاستقبال، بإنكليزية فيها عجمة وصوت أخن، إنه جاء لزيارة أحد النزلاء، وأخذ يشرح له أنه صديق قادم من أوروبا إلى وينزر ليشاركه في مشروع تجاري.

جلس الرجل في مواجهتنا، وسرعان ما راح يصوّب عليّ بين الفينة والأخرى نظرات مريبةً، فشككت في أمره، لكن الفضول دفعني إلى محادثته لعله يرشدني إلى مكان نجد فيه عملاً ما دام من أهل المدينة ويمتهن التجارة. سألني بضعة أسئلة شخصية فأجبته عنها، وأطلعته على سبب رغبتي في الانتقال إلى المدينة، فمدّ يده إلى جيب سترته وأخرج بطاقة تعريف وقدمها لي قائلاً:

ـ اسمي مهدي أنصاريان وهذا عنوان شركتي، انتظركما بعد الظهر لأوفر لكما عملاً يليق بكما.

رمقتني تيريزا بنظرة خاطفة لم ينتبه الرجل إلى مغزاها، فشكرته وقرأت بطاقته فإذا به صاحب شركة متخصصة بتصدير السيارات المستعملة، وسألته:

ـ هل شريكك أوروبي؟

أجاب:

ـ بريطاني الجنسية من أصل عراقي.

أشعرتني إجابته بقليل من الطمأنينة، فسألته:

ـ من أي مكان في العراق؟

قال:

ـ من البصرة، غادرها قبل عشرين عاماً هرباً من الاضطهاد.

قلت:

ـ أهل البصرة طيبون وأصلاء.

ردّ بصلف:

ـ عدا الذين ساندوا الدكتاتور في حربه ضد بلدنا.

ـ كان الشعب كله معبّأً من أجل الحرب، وأظن أن الأمر ينطبق على بلدكم أيضاً.

استفزه كلامي فقال محتدّاً:

ـ كان الأمر بالنسبة لنا مختلفاً، نحن كنا ندافع عن أنفسنا وثورتنا.

ـ ليس صحيحاً، قادتكم كانوا يدفعون جيشكم للوصول إلى «كربلاء».

ـ كانوا يريدون أن يحموا أضرحة الأئمة من النواصب.

ـ وهل الأئمة فرس وأهل «كربلاء» نواصب؟

سألني بوقاحة:

ـ أنت مسيحي ما شأنك بهذا؟

أجبت:

ـ أنا عراقي وكل المقدّسات في بلدي تعنيني.

ـ لماذا إذن أدرت لها ظهرك وجئت إلى كندا؟

ـ لم أدر لها ظهري، إنما اقتلعني الأوباش الطارئون على العراق.

ضحك ضحكةً صفراء وقال:

ـ واضح أنك من أتباع الدكتاتور.

ـ لست من أتباع أحد، أنا من أرومة عميقة الجذور في بلدي.

ـ لا تغالط نفسك، لقد استهدفوكم لأنكم كنتم موالين له.

أغضبني ردّه فقلت:

ـ ما دمت سيد أنصاريان تتحدث بهذه النبرة فأنا أعتذر عن قبول العرض الذي قدّمته لنا.

ـ ما بها نبرتي؟

ـ للأسف فيها لوثة.

فغر الرجل فاه ونظر إلي شذراً دون أن ينبس بكلمة، ثم نهض من مكانه متجهماً ساخطاً، كأنما انقضّت عليه عاصفة هوجاء، وخطى إلى موظف الاستقبال، ودمدم بشيء ما فأشار الموظف إلى ممر على يمينه. كان من الواضح أن الرجل يريد استعمال الحمام ولا يعرف مكانه.

قالت لي تيريزا، وأنا أسحبها من يدها لننصرف:

ـ لماذا أفسدت هذه الفرصة؟

قلت:

ـ هذا الرجل لا يؤتمن جانبه، ويبدو لي أنه مأبون.

ـ يا لحظنا التعيس!

خرجنا إلى الرصيف فوجدنا السماء ملبدةً بالغيوم والغيث يهطل رذاذاً. مكثنا تحت مظلة بوابة الفندق متصلبَين، ليس في بال أحد منا ما يمكن أن نفعله حتى يحين موعد ذهابنا إلى المطار مساءً. أخذنا نتلفت يمنةً ويسرةً، ونتطلع، بمزاج عكر، إلى السيارات والناس السائرين في دفق متباطئ، وإلى فاترينات المحلّات المضاءة، التي تعرض أزياء نسائيةً حديثةً على مانيكات نحيفات طويلات القامة. كنت في داخلي مقتنعاً بأن تيريزا نطقت بالحقيقة حين قالت «يا لحظنا التعيس»، وفي رأسي يمور سؤال عن سبب تلك التعاسة.

بعد دقائق رن هاتفي، وإذا بالمتصل يكلمني بالعربية:

ـ الأخ أفرام جبرائيل؟

ـ نعم، تفضل.

ـ معك مطعم الأرز.

خفق قلبي:

ـ أهلاً وسهلاً تفضل.

ـ حضرتك والمدام قدّمتما لنا طلباً للعمل؟

ـ نعم صحيح.

ـ هل يمكن أن تتفضلا عندنا لنختبركما؟

ـ بالتأكيد، خلال دقائق.

أغلقت الهاتف وضربت على الفور كفي بكف تيريزا وقلت لها بفرحة غامرة.

ـ مبروك حبيبتي حصلنا على عمل في مطعم الأرز.

ـ يا يسوع!

هتفت تيريزا، متهللةً بابتسامة غبطة، ورسمت على صدرها إشارة الصليب، كأنما انتصرت على العالم أجمع، وطبعت قبلةً على خدي. التفت لا إرادياً إلى بوابة الفندق، وقلت:

ـ ليذهب التافه أنصاريان إلى الجحيم.

أسرعنا الخطى وقطعنا الشارع إلى الرصيف الثاني، حيث يقع مطعم «الأرز» اللبناني الفخم على بعد حوالي مئتي متر. لم يكن يراودني أدنى شك في أن صاحبه سيوافق على تشغيلنا. استقبلنا ببشاشة وعرّفنا إلى نفسه «طوني باسيل»، في منتصف الثلاثين من عمره، وقال:

ـ أفكّر في إدخال الموسيقى الحية إلى المطعم، وأفضّل العزف على البيانو.

فابتدرت تيريزا قائلةً:

ـ أنا أجيد العزف عليها بمهارة.

ابتسم طوني وأشار إلينا أن نتبعه إلى غرفة جانبية وجدنا في داخلها بيانو غراند حديثة بنية اللون صقيلة كالمرآة. طلب من تيريزا أن تعزف مقطوعةً

موسيقيةً، فرفعت غطاء البيانو وجلست بهدوء على مقعدها، وأخذت تضرب على المفاتيح بلمسات عشوائية بادئ الأمر لتسمع نغماتها، ثم شرعت تعزف بسلاسة مقطوعةً من السيمفونية الأربعين لموتسارت، وهي السيمفونية الأثيرة إلى نفسها. راح طوني يتمايل مع نغماتها ويترنم بأغنية فيروز «يا أنا يا أنا أنا وياك...»، وحين انتهت صفق لها جذلاً وقال:

ـ رائع.. تستطيعين أن تباشري في العمل متى ما شئت.

وأردف وهو يلتفت إليّ:

ـ أما أنت يا أفرام فستكون مشرفاً على الصالة في البداية، ثم محاسباً في وقت لاحق.. ما رأيك؟

قلت:

ـ موافق.. هذا كرم منك.

خرجنا من المطعم مغتبطين، متماسكي اليدين كأننا متوجهان إلى حفلة راقصة، وسرنا باتجاه الفندق، لكن قلقاً مفاجئاً دهمني، وأخذت أفكر فيما إذا كانت بواعث طوني مخلصةً وراء تشغيلنا بهذه السرعة، خاصةً أن الباحثين عن العمل من اللاجئين الجدد في المدينة كثيرون. كشفت لتيريزا عن هواجسي، فقالت، وهي تسند رأسها إلى كتفي، إنها ربما تكون من مخلفات سلوك الرجل القميء الذي التقيناه في الفندق وعليّ أن أطردها من رأسي.

بعد أن قطعنا مسافةً قصيرةً غيرنا اتجاهنا وذهبنا إلى مكتب الخطوط

الجوية لتأجيل رحلة عودتنا إلى أوتاوا، حيث كان يلزمنا المكوث بعض الوقت في وينزر ليتسنى لنا البحث عن شقة سكنية تسع خمسة أشخاص.

في اليوم التالي وجدنا شقةً مفروشةً مؤقتاً، ذات ثلاث غرف نوم وحمامين تبعد قليلاً عن المطعم، إلى حين عثورنا على شقتين فارغتين نستطيع تأثيثهما على مهل، ورجعنا إلى أوتاوا.

أنهينا جميع التزاماتنا في أسبوعين، وبعنا أثاث بيتنا وبيت حماتي وسيارتي، واستقلينا القطار بأحمال خفيفة إلى تورونتو ومنها إلى «وينزر»، وبعد يومين باشرنا في عملنا، وبدأنا حياةً جديدةً افتقدنا فيها إلى أصدقائنا الذين تركناهم في العاصمة.

ميران

2007

بحلول الخريف الماضي وردني من أقربائي في العراق نبآن ضاعفا من وتيرة حزني، في حين كنت آمل أن تمحو علاقتي بآيجون، التي غمرت حياتي بجمالها وعنفوانها، آثار حزني القديم. أفاد النبأ الأول بمقتل عمي منادي مع 16 شخصاً برصاص حراس شركة «بلاك ووتر»، الذين أطلقوا النار عشوائياً على مدنيين في بغداد. وأفاد الثاني باغتيال ابن خالتي الرائد الطيار جسّام على يد عملاء لإيران انتقاماً من مشاركته في قصف أهداف إيرانية خلال الحرب. كانت علاقتي بهما حميمة جداً، خاصةً جسّام الذي كان محبّاً للأدب، ويحتفظ في مكتبته بالكثير من دواوين الشعراء القدامى والمعاصرين، وهو أول من شجّعني على كتابة الشعر. ولم يمضِ على الحادثين سوى أيام قليلة حتى أصيبت أمي بالمرض الخبيث، وصارت تغشاها أحياناً حالة اكتئاب، وتستدعي إلى مخيّلتها شخصيات فقدتها مثل: أبي، وأخي، وخالتي، وتشرع في محاورتها عن مرضها وذكرياتها بصوت

مسموع كما لو أنها مقيمة معها في البيت. وأبان لي طبيبها المعالج أنها لن تعيش طويلاً لأن رئتيها مهترئتان، ويجب أن تتوقف فوراً عن التدخين.

في وقت سابق أيضاً كان رحيل تيريزا وأفرام عن أوتاوا قد آلمني، فتوقفت نهائياً عن ارتياد مطعم «ريمسيون»، ورحنا أنا ويوسف نلتقي أثناء عطلة نهاية الأسبوع في شقته رفقة آيجون، التي أخفيت علاقتي بها عن أمي، طوال المدة الماضية، لئلا تغضب عليّ، فهي تريدني أن أتزوج من فتاة مندائية حسب العرف الذي تؤمن به. ولم يبخل علينا صديقي في توفير خلوة تتيح لنا فرصة ممارسة الحب على سريره حينما تكون أيهان غائبةً.

شاركَنا سامان وزوجته مرتين أو ثلاث في سهراتنا، ثم انقطع عنا فجأةً بسبب خلاف حدث بينه وبين يوسف حول دور الكرد في احتلال أمريكا للعراق، وتمدّدهم في مناطق واسعة خارج إقليم كردستان لضمها إلى جغرافيتهم. حاولت بعد ذلك أن أصلح بينهما، قلت لهما إننا عراقيون هنا وعلى كل واحد منا أن يتقبّل رأي الآخر، إلاّ أن سامان أفصح عن أزمات بدا لي أنه كان يتقن إخفاءها طوال المدة الماضية، أزمات أستطيع أن أعزوها إلى قناعات متعصبة.

جلّ ما صار يشغل بالي، نتيجةً لمرض أمي الخطير، أختي سولاف التي بلغت السادسة عشرة من عمرها. من سيرعاها ويتابعها إذا ما ظلت وحيدةً؟ وبدأت تساورني بين حين وآخر هواجس سخيفة عما إذا كانت أسرتي قد هبطت عليها لعنة ما، رغم أنها لم ترتكب آثاماً حتى تُعاقب

عليها. أنا الوحيد فيها مَن تمرّد على بعض المعتقدات والروحانيات التي تؤمن بها، فلماذا لم تهبط عليّ؟ لكنني في كل مرة كنت استنهض روح ثقافتي وأوبّخ نفسي على تلك الهواجس!

تعهدت أم آيجون، وهي تعدّ نفسها لتصبح حماتي، بأن تعتني بسولاف في حال وفاة أمّي، لذا أخذتها معي ذات مرة إلى بيتهم لتتعرف إليهم وتأنس إلى صحبتهم. أحبتها آيجون كثيراً وصففت شعرها، وأهدتها بعض الهدايا. لم أدعها تعرف طبيعة علاقتي بها كي لا تخبر أمّي، إلاّ أنها أدركت ذلك بحسها الفطري، واحتفظت بالسر لنفسها.

تعلمت سولاف الإنكليزية بسرعة فائقة، وصارت متفوقةً في الدراسة، حالمةً بأن تكون مصمّمة أزياء. جاءها ذلك الحلم من إدمانها على مشاهدة عروض الأزياء في التلفزيون، ولم أبخل عليها بشراء بعض المجلات التي تُعنى بالموضة والأناقة. لكنّ أكثر ما يثير حفيظتي فيها، وأحياناً يستفزني، هو تمسكها المفرط بالطقوس والمعتقدات الدينية بسبب تربيتها الصارمة في البيت. كنت أخشى طبعاً أن أجعلها تتأثر بي لكي لا تُستثار أمي.

في شهر تموز الماضي مرّ عيدنا الكبير (دهورا ربّا)، الذي نسميه شعبياً بـ«عيد الكرصة»، ونعتكف أثناءه في بيوتنا، عادةً، طوال يوم كامل ونصف اليوم. ساعدتْ سولاف أمّي في تنظيف الشقة وبخّرتها قبل يومين من العيد، وطلبت مني أن أرافقها قبل يوم من مجيئه إلى النهر لغرض التعميد، فقلت لها إنني سأوصلها ولن أشاركها الطقس هذه المرة، ويمكنها

مرافقة أحد معارفنا بسيارته في عودتها لأنني مرتبط بموعد مهم صباح ذلك اليوم. استاءت سولاف وقالت تعظني:

ـ إن مَن لا يتعمّد في هذا اليوم سيصبح من حصة النار، ألا تعرف ذلك؟

استبدّت بي رغبة في أن أصرخ في وجهها، لكني كبحت جماحي وأجبتها:

ـ سولاف لا تبالغي، قلت لك إنني مرتبط بموعد مهم لا أستطيع تأجيله.

واصلت عظتها:

ـ ما كان عليك أن تضرب موعداً في مثل هذا اليوم المقدّس ولديك عطلة من العمل.

قلت ببرود:

ـ حسناً نسيت.

ـ وهل لديك غداً موعد آخر أيضاً؟

ـ اطمئني، سأمكث في البيت ستاً وثلاثين ساعةً حتى تعود الأرواح النورانية إلى الأرض(*).

(*) يعتقد المندائيون بأن الأرواح النورانية تغيب في هذا العيد عن الأرض لتحتفل في الأعلى، وتكون الأرض معرضةً للشر، لذلك يمكثون في بيوتهم إلى حين عودة تلك الروح.

حدّقت سولاف إلى وجهي مليّاً لتتأكد ما إذا كانت قسماتي توحي بالصدق أم أنني أضمر في نفسي أمراً ما، فاتخذتُ هيأة متشحةً بالجديّة، ثم دخلت إلى غرفتي لأغير ملابسي. في الحقيقة كان لدي موعد مع آيجون لآخذها إلى الطبيب النسائي، ولم أكن في مزاج يسمح لي بالتعميد، خاصةً أنني حلمت في الليلة السابقة بمقتل والدي وأخي سبهان، رأيت شريطاً كابوسياً يشبه أفلام الرعب.

بعد أن أوصلتهما إلى النهر عدت إلى البيت، كان لدي ساعتان من الوقت حتى يحين موعد ذهابي إلى آيجون، ففتحت الكومبيوتر وأخذت أدون في يومياتي مجريات اليوم السابق:

«21 تموز 2007

غادرت عملي هذا اليوم منتصف النهار. كان الجواهرجي الذي أعمل عنده قد وعد أسرته بالسفر إلى بيت أخته في مونتريال. قال إنها دعتهم لمشاركة جمع من المندائين في طقس التعميد هناك استعداداً لعيد الكرصة. قبل خروجي من المحل هاتفت آيجون فأجابني الرد الآلي بأن هاتفها مغلق. تساءلت مع نفسي «لماذا مغلق، هل نسيت أن تشحنه؟»، ثم اتصلت بأمّها، فلم أفلح معها أيضاً، كان هاتفها يرن ويرن ولا ترد. عندئذ قررت أن أقصد مركز التجميل الذي تعمل فيه آيجون.

في الطريق أردت أن أبدد قلقي بسماع موسيقى أو أغنية جميلة في الراديو، لكن ما إن فتحته حتى رشقني المذيع بهذا الخبر المفجع: «أفادت وكالة أنباء رويترز بأن شاحنةً ملغومةً وقنابل استهدفت ظهر اليوم، بتوقيت الشرق الأوسط، قريتين في شمال العراق يقطنهما إيزيديون، الأمر الذي أدى إلى مقتل أكثر من 350 شخصاً على الأقل في أسوأ هجوم مميت يشهده البلد منذ عام 2003».

أحسست بانقباض في عضلات قلبي، واسترجعت في ذاكرتي صديقي الأيزيدي سفيان، الذي كان مغرماً بفلسفة هربرت ماركوز، ويردد دائماً مقولته إن الهيمنة التقنية سبب في استلاب الإنسان، وتحويله إلى آلة انتاجية في المجتمع الصناعي الحديث. وكثيراً ما ألحّ عليّ أن أقرأ كتابه «الإنسان ذو البعد الواحد»، لكني حين قرأته وجدته يحمل نفس النزعة التشاؤمية عند ماكس فيبر، فلم أحبه. ترى أين سفيان الآن؟ هل ما زال في بلدته «القحطانية» أم غادرها لاجئاً إلى بلد غربي هرباً من اعتداءات التكفيريين؟

أخبرتني صاحبة المركز بأن آيجون لم تأت إلى العمل ولم تتصل بها، فتشوّش كل شيء في رأسي ولم أعد قادراً على تفسير غيابها. مكثت واقفاً أمام المركز وأخذت أفكّر في

أسوأ الاحتمالات «ربما صدمت شخصاً في الشارع وهي في طريقها إلى العمل، وربما حدث العكس، صدمت شاحنة لعينة سيارتها، أو هي التي صدمتها في لحظة عدم انتباه. لكن ما لأمّها لا ترد؟ لو صحّ أحد هذه الاحتمالات لما تردّدت في إبلاغي. إذن يجب أن أذهب إليها». قدت سيارتي متوجهاً إلى شارع «دلهوزي»، حيث يقع البيت هناك في ركن منزو منه. قرعت جرس الباب فتأخرت في فتحه، وحينما أطلّت دار بيننا الحوار الآتي:

ـ ماذا يحدث اليوم، هل آيجون في البيت؟

أزاحت مصراع الباب إلى الداخل وتراجعت إلى الوراء خطوتين وقالت:

ـ متعبة قليلاً ولم تذهب إلى العمل.

أخذت نفساً عميقاً، وقلتُ:

ـ هكذا دون أن تخبر رئيستها وتغلق هاتفها أيضاً؟

ـ لا أدري، إنها نائمة، هل ذهبت لتتفقّدها؟

ـ حتى أنت لم تردي على مكالماتي فماذا أفعل؟

ـ نسيت هاتفي صامتاً. أدخل هل ستظل واقفاً؟

ـ ما بها متعبة؟

استفسرت وأنا أدلف إلى البيت، فقالت:

ـ استيقظت صباحاً وهي تشكو من غثيان وإمساك ثم أغلقت هاتفها ونامت.

صعقني ردّها فقلت:

ـ لا تقولي لي إنها علامات حمل!

ـ وماذا تكون غير ذلك؟

ـ مستحيل، أنا بنفسي أخذتها إلى الطبيب وثبّت لها لولباً!

ـ اللولب ينزلق من الرحم أحياناً دون أن تدرك المرأة فيحدث الحمل.

ـ وما الحل؟

ـ تأخذها إلى ذلك الطبيب كي يجهضها.

ـ يا يوحنا وزرادشت!

ـ ما بك؟ لماذا تستنجّد بهما؟

غمغمت آيجون بصوت أليل وهي تدخل إلى الصالة من غير أن ينتبه لها أحد، فهرعت إليها وعانقتها وقلت:

ـ حبيبتي، الإجهاض فيه خطورة على صحتك؟

قالت:

ـ لست مستعدةً نفسياً للإنجاب.

ـ ذلك بسبب الغثيان الذي تشعرين به الآن، لكنك بعد مدة ستغيّرين رأيك.

انفجرت أمها غاضبةً:

ـ لا تحاول إقناعها. هذا قراري قبل أن يكون قرارها.

خرجت منزعجاً من بيتهم، وما إن دلفت إلى سيارتي حتى اتصلت بعيادة الطبيب، وحصلت على موعد لمراجعته صباح اليوم التالي، وظلّ ذهني منشغلاً في البحث عن سبب إصرار أمّها اللعينة على التخلص من الجنين».

يوسف

2006

واجهتُ في الأشهر الأولى من إقامتي في كندا نفس الصعوبات التي واجهها غيري من اللاجئين العزّاب، كان أكثرها إزعاجاً شحة المستحقّات الشهرية التي تمنحها الحكومة، وارتفاع تكاليف الحياة اليومية. لكنّ وضعي تحسن قليلاً عندما انتقلت صديقتي أيهان إلى شقتي، فقد كانت تحصل على دخل لا بأس به من برنامج المعونة الاجتماعية لأنها تواصل دراستها. ورغم ذلك كان عليّ أن أجد عملاً لزيادة دخلنا، بيد أن الحصول على عمل يلائمني في أوتاوا كان شبه مستحيل. كل المهن التي عثرت عليها كانت لا تناسب مؤهلاتي، مثل عامل في محطة وقود أو مطعم أو بائع في سوبر ماركت، وغير ذلك.

مرةً نصحني صديق سوداني، كان يقيم معي في دار الاستقبال التي آوتنا أول وصولنا إلى أوتاوا، بأن أتصل بالجرائد العربية المحلية لعلها توفر لي فرصة عمل مناسبة، فأخذت بنصيحته، وليتني لم آخذ بها، اكتشفت أن تلك الجرائد في وادٍ وأنا في وادٍ آخر، كما أنها لا تدفع ما يسدّ الرمق.

بعد انتظار دام حوالي شهرين وافقت جريدة بيروتية على قبولي مراسلاً صحفياً، أكتب لها عن قضايا الجالية اللبنانية ونشاطاتها الاجتماعية والثقافية، والحضور السياسي والاقتصادي لكندا في العالم العربي مقابل مكافأة شهرية تعادل ما أتقاضاه من الحكومة.

تشكّلت علاقتي بأيهان صدفةً مثلما يحدث في الأفلام. كنت ذاهباً ذات يوم دافئ إلى جامعة كارلتون للاطلاع على برامج الدراسات العليا، فرأيتها عند مدخل كلية الإعلام. ظننتها مدرّسةً أو موظفةً بسبب عمرها الذي بدا لي أكبر من عمر طالبة. أنثى ذات قوام ممشوق، لا يُشتكى قصر منها ولا طول، كما يقول كعب ابن زهير، تُعلّق على كتفها حقيبةً، وتضع على عينيها نظارات شمسيةً ملونةً. تقدمت ناحيتها واستفسرت منها عن قسم التسجيل للدراسات العليا فأرشدتني إليه. حين عدت بعد دقائق وجدتها لا تزال واقفةً تتصفح مجلةً عربيةً، وقد أزاحت نظارتيها. دفعني فضول ممزوج بإعجاب إلى أن أسألها عما إذا كانت مدرّسةً أم موظفةً، ففاجأتني بأنها طالبة في الكلية، متأخرةً عن أقرانها كثيراً بسبب ظروف خاصة. قلت لها:

ـ أراك تتصفحين مجلةً عربيةً، هل تجيدين قراءتها؟

تفرّست في وجهي برهةً، فلاحظت في عينيها شيئاً من الحزن، قالت:

ـ يبدو أنك عربي؟

ـ نعم، وأنتِ؟

ردّت بلهجة شامية:

ـ والداي من أصل سوري، وأستطيع القراءة بالعربية قليلاً.

شعرت بغبطة، فمددت يدي إليها وصافحتها، وسألتها بلهجتي العراقية:

ـ من أي مدينة في سوريا؟

ـ أبي من دمشق، أمي تركمانية من حمص، لا بدّ أنك سمعت بها.

ـ بل أعرفها مثلما أعرف دمشق، يحتضنها نهر العاصي، النهر العاشق والنبيل، وولد في أحد أحيائها القديمة ديك الجن.

ـ ديك الجن؟ أول مرة أسمع أن للجن ديوكاً!

ضحكتُ:

ـ إنه ليس ديكاً حقيقياً بل لقب شاعر اسمه عبد السلام الحمصي، عاش في المدينة قبل بضعة قرون، وأحبّ فيها فتاةً مسيحيّةً إسمها ورد بنت الناعمة وتزوجها. وقد شُبّه بديك الجن لأسباب اختلف عليها الرواة. هل زرت أخوالك هناك؟

ـ ثلاث مرات.

ـ أتعلمين أن الحمامصة مشهورون بالنكت والدعابات؟

ـ سمعت أنها عادة قديمة عندهم، لكني لا أعرف شيئاً عن جذورها.

ـ من غير المعروف متى بدأت، غير أنها ربما ارتبطت بالروايات

الشعبيّة ذات الطابع الفكاهي. ومما يُروى أن تيمورلنك عندما اجتاح بلاد الشام كانت المدينة الوحيدة التي سلمت من أذاه هي حمص، لأن سكانها تظاهروا بالجنون في الشوارع، وعلّقوا على رؤوسهم القباقيب، وأخذوا يقرعون على الصحون النحاسية، وأشاعوا أن مياه العاصي تصيب كل من يشربها بالجنون، وهذا ما جعل جيش تيمورلنك يمرّ مروراً سريعاً على المدينة. حدث ذلك يوم الأربعاء فاعتُبر هذا اليوم عيد الجنون الحمصي من باب الدعابة.

ـ تعرف كل هذا بينما لهجتك ليست سوريةً!

ـ أنا عراقي من بغداد.

ـ بغداد والشعراء والصور!

ـ يا سلام! تسمعين فيروز أيضاً؟ أنا عشت في سوريا سنوات طويلةً وأكملت الجامعة فيها، لكن الحظ لم يسعفني أن ألتقي امرأةً جميلةً مثلك أيام الدراسة.

سرّها ذلك فوضعت المجلة في حقيبتها وقالت:

ـ أشكرك، كلك ذوق...

ـ اسمي يوسف البكري.

ـ أنا اسمي أيهان ساسون.

جفلتُ:

ـ هل تمزحين؟

ـ لا أمزح، أبي ينحدر من هذه الأسرة اليهودية الدمشقية. كان جدّي يشغل وظيفةً حكوميةً مدنيةً فصرفوه عن العمل إثر حرب 48، فهرب صحبة عائلته إلى لبنان، ومنه إلى أمريكا ثم إلى كندا.

ـ غريب! كيف لم يذهب إلى إسرائيل؟

ـ علمت من أبي أنه لم يكن متديّناً، وأحبّ ألاّ يقطع جذوره مع بلده، وظلّ يأمل أن تتغير الظروف وتعود العائلة إلى دمشق.

ـ معنى ذلك أن أباك مولود هناك؟

ـ كان عمره ثماني سنين حين فرّ أهله. وأصبح ماركسياً في شبابه وتحوّل إلى ربوبي(*)، وما إن أنهى دراسته الجامعية وبدأ يعمل في التجارة حتى تخلى عن أفكاره اليسارية.

ـ وكيف تزوج أمك؟

ـ أحبّا بعضهما، وعندما قرّرا الزواج أعلن إسلامه.

ـ هكذا يفعل الحب؟

ـ يقول شكسبير: يمكننا عمل الكثير بالحق، لكن بالحب أكثر.

ـ تقرأين لشكسبير؟ رائع.

(*) الربوبية (Deizm) مذهب يؤمن أصحابه بوجود خالق للكون، وهذه الحقيقة يمكن الوصول إليها باستخدام العقل ومراقبة العالم الطبيعي دون الحاجة إلى أي دين.

ـ قرأت معظم مسرحياته وسوناتاته.

ـ إذن ما دام كلانا قد ارتشف من بحره فهل يمكن أن نكون صديقين؟

ـ يسعدني ذلك.

ـ هل عندك محاضرات اليوم؟

ـ كانت عندي واحدة وانتهت، وأنتظر زميلتي لتوصلني بسيارتها إلى البيت. ستنهي محاضرتها بعد قليل.

ـ ما رأيك أن أقوم أنا اليوم بالمهمة؟

ـ شكراً، لا أريد أن أتعبك.

ـ اطمئني، لن أحملك على ظهري.

ضحكت وقالت:

ـ حتى لو أردت أن تفعلها فلن تتمكّن من حملي، وزني يعادل وزنك.

ـ في هذه الحال يمكن أن تحملنا سيارتي.

ترددت أيهان قليلاً ثم أشارت بكفها موافقةً، وسارت جنبي بخطى بطيئة مبالغ فيها كأنها تسير في طريق شديدة العثرات. ربما أرادت أن توحي لي بأنها غير متلهّفة كثيراً لمرافقتي. كنت قد ركنت سيارتي في مكان بعيد تقريباً، فسألتها:

ـ كيف استقبلت عائلة أبيك إسلامه؟

ـ استاءت طبعاً، لكنه لم يكن يأبه لها.

ـ لم يكن؟! هل هو ميت؟

ـ نعم منذ ثلاث سنوات.

ـ يؤسفني ذلك.

بعد أن أجتزت بوابة الجامعة شغّلت جهاز سي دي السيارة، فصدح كاظم الساهر يغني «أحبيني بلا عقدٍ وضيعي في خطوط يدي». أطربتني الأغنية وشجّعتني على لمس يدها بلطف قائلاً:

ـ هل تقبلين دعوتي إلى احتساء شيء ما قبل أن تذهبي إلى البيت؟

كانت يدها ناعمةً ودافئةً، وخشيت أن تعتذر لأنها كانت متوجّسةً، لكنها ابتسمت وقالت:

ـ أوكي.

وأشارت إلى السي دي قائلةً بجرس متهدّج:

ـ أغنية كاظم هذه مدمرة!

ظننتها تقصد أنها تمس شغاف القلب فقلت:

ـ أين تحبين أن نذهب؟

ـ أي مكان تختاره أنت.

ـ هل تشربين البيرة؟

ـ النوع الخفيف فقط.. الثقيل يسبب لي صداعاً.

ـ أعرف مطعماً اسمه «ريمسيون» يعمل فيه صديق لي رفقة زوجته.

ـ كما تشاء.

في طريقنا إلى المطعم حدّثتني أيهان عن أسرتها قائلةً إن أختها الأصغر منها لورين تدرس اللغة الألمانية في الجامعة، ووالدها كان يعمل في التجارة ويسافر كثيراً إلى أمريكا، وأغلب تعاملاته كانت مع مسلمين وعرب من الشرق الأوسط. ثم قادنا الحديث بعدئذ إلى الكلية، فأخبرتني بأنها انتسبت إليها بمنحة كونها متفوقةً في الثانوية. وسألتني عما إذا درستُ الإعلام في جامعة دمشق، فقلت لها إنني متخصص بالأدب الإنكليزي وأرغب في إكمال الماجستير بالإعلام. تعمدت أثناء ذلك إعادة أغنية الساهر نفسها مرات ومرات، وكنت ألتفت إليها بين حين وآخر لأقتنص نظرةً خاطفةً من قسمات وجهها الحلوة وشفتيها اللتين كانت تحركهما بتأنٍ لتلفظ الكلمات بوضوح، وكأنها تريد أن تثبت لي أن إجادتها اللغة العربية لا تقل عن إجادتي لها، إلاّ أنني انتبهت إلى أنها كانت تطرق رأسها وتصمت كلما غنى الساهر المقطع الأخير:

«أحبيني بعيداً عن بلاد القهر والكبت

بعيداً عن مدينتنا التي شبعت من الموت»

قدّمت أيهان إلى تيريزا وأفرام قائلاً لهما إنها صديقتي، فأبديا سعادتهما البالغة. اخترت الجلوس إلى منضدة مميزة ذات كرسيين في احدى الزوايا، كان يفضّلها العشّاق عادةً. أرادت تيريزا أن تحتفي بأيهان فعزفت لها موسيقى أغنية سيلين ديون في فيلم «تايتانيك»، وكان أفرام يبتسم لي

كلما نظرت إليه، وكأنه يهنئني على علاقتي بها، فأبادله الابتسامة وأرفع له كأسي.

بعدما انتهينا من احتساء زجاجتي بيرة خطر في بالي أن أسأل أيهان عن الإحساس الذي كان ينتابها وهي تسمع المقطع الأخير من أغنية الساهر، فقالت بصوت تشوبه رنة حزن إنه كان يذكرها بموت أبيها، قلت:

ـ هل مات ميتةً طبيعيةً أم بسبب حادث؟

أرخت أيهان عينيها قليلاً فانبجست منهما دمعتان متلألئتان انحدرتا إلى وجنتيها. أسرعتُ إلى سحب منديل ورقي ومسحتهما وربتّ على يديها، فتنهدت وقالت:

ـ مات في معتقل غوانتانامو.

أذهلني ردّها:

ـ غوانتانامو! كيف؟

ـ وجدوه فاقداً الوعي أثناء فحص روتيني للمعتقلين، وحاولوا إفاقته لنقله إلى مستشفى القاعدة العسكرية، لكن دون فائدة.

ـ لم أسألك كيف مات، بل لماذا كان معتقلاً هناك؟

ـ اشتبه الأمريكان بتورطه مع تنظيم القاعدة بعد هجمات 11 سبتمبر.

ـ أمر غريب، ما علاقته بهذا التنظيم؟

ـ حتى أنا لا أعرف. كان وقتها في نيويورك يتفاوض على شراء بضاعة

لحساب جهة ما في دولة عربية.

ـ كيف عشتم بعد اعتقاله؟

ـ اكتشفنا أنه سحب كل رصيده في البنك وهو في نيويورك، فمررنا بضائقة مالية بعدما كنا نعيش في بحبوحة من عمله التجاري، لذا اضطررت إلى تأجيل دراستي كي أشتغل وأعيل أسرتي.

ـ أين اشتغلت؟

نظرت أيهان إلى عينيّ نظرةً نافذةً، كما لو أنها أرادت أن تقدّر ما إذا كنت رجلاً جديراً بتفهّم ما ستعترف به، وقالت:

ـ بصراحة اشتغلت راقصةً في نادٍ ليلي مدة سنتين.

سحبت يدي من كأسي التي كنت أمسك بها ونظرت إليها باستغراب، دون أن أنبس بكلمة، فقالت:

ـ هل يغيظك ذلك؟

قلت:

ـ لا، أبداً.

ـ لكنك صُدمت.

ـ في الحقيقة فوجئت.

ـ كان بإمكاني أن أكذب عليك.

ـ على العكس، حسناً فعلتِ، أقدّر صراحتك وأحترمها.

أشرق وجهها وقالت:

ـ أنت عربي نادر يا يوسف.

ـ لماذا؟

ـ غيرك كان سيعتبرني مومساً.

ـ ربما، لكل إنسان نظرة. المهم كيف تركتِ هذه المهنة ورجعتِ إلى الدراسة؟

بللت طرف إصبعها برغوة البيرة، ثم تناولت رشفةً وقالت:

ـ تلك قصة أخرى. ذات يوم طلب يدي ثري عربي افتتن بي أثناء تردّده إلى النادي، وأهداني مجوهرات ثمينةً. ادّعى أنه أرمل، ويريد أن يصبح مستثمراً ويحصل على الجنسية الكندية. وجدتها فرصةً لا تُعوّض، رغم أنه يكبرني بربع قرن، كي أتخلص من تلك المهنة ونكمل أنا وأختي دراستنا الجامعية.

كان ودوداً معي طوال شهر العسل الذي قضيناه في فانكوفر، وأودع في حسابي رصيداً دسماً. بعد ذلك سافر إلى بلده ووعدني بأنه لن يتأخر، وما إن وصل حتى كتب لي رسالةً قال فيها إن زواجه مني كان نزوةً وانتهت، واعترف بأنه متزوج من امرأتين، وقد حصلت له مشاكل كبيرة معهما ولا ينوي العودة إلى كندا. وختم رسالته بإنه سيبعث لي وثيقة طلاقي بالبريد. وبالفعل بعثها بعد شهر، لكني تجاهلته ومضيت في حياتي. أضفت المبلغ الذي أودعه في حسابي إلى ما ادّخرته من عملي وثمن المجوهرات التي

بعتها واشتريت بيتاً صغيراً باسم أمّي، فأصبح الطريق ممهداً أمامي للعودة إلى الدراسة.

مكثنا في المطعم وقتاً أطول مما كنا نتوقع بعد أن أوصى لنا أفرام بطبق روبيان وزجاجتي بيرة على حسابه، وتحدثنا عن أشياء كثيرة في حياة كل منا، وأخبرتني أيهان بأن أمّها وجدت أخيراً عملاً، بائعة طيور، يدرّ عليها دخلاً جيداً، إضافةً إلى ما يتقاضاه أخوها من المعونة الحكومية الخاصة بالأطفال، أما أختها فإنها تُيسَّر أمورها بالقرض الجامعي الذي حصلت عليه. كنت أصغي إليها بهوى مكتوم، حالماً بأخذ شفتيها النديتين في فمي.

حين هبط الليل أوصلتها إلى البيت وعدت إلى شقتي مشوّش الرأس، تتنازعني هواجس متضاربة، وظل ذهني منشغلاً بها، أستعيد تارةً جمالها ودفئها وطيبتها، متلهفاً للذوبان فيها، وأتخيّل تارةً كيف كان التوافه في النادي الليلي يبحلقون إلى جسدها المشوق بغرائز مستثارة. لم أعرف ليلتها أكان ذلك بداية غيرة أم تآكل من هوى خالجني فور وقوع بصري عليها. فجر اليوم التالي حلمت بها حلماً جميلاً، وعندما أفقت وجدتني في مزاج رائق، فأيقنت بأن ما دار في خلدي كان بداية غيرة ليس إلاّ، وعليّ أن أمضي في وصالها. اتصلت بميران وحدثته عنها، فغبطني عليها ووعدني بأن يرتّب لنا دعوةً رومانسيةً لعلها تفتح له نافذةً إلى أنثى تقضي على حزنه.

في نفس اليوم كنت قد وجدت رسالةً في صندوق بريدي أرسلها لي والدي فاجأني فيها أن مكتب أخويّ زهير وأصيل تعرض إلى اعتداء

مسلّح جُرح فيه الأول، ونجا الثاني، وفسّر الأمر بأنه يحمل دافعاً طائفياً لأنهما تلقيا تهديداً قبل حدوث الاعتداء بشهر ينذرهما بعدم إجراء معاملات بيع عقارات في المنطقة لمشترين من الطائفة الأخرى، لكنهما لم يأخذا ذلك التهديد على محمل الجَّد، بل ظنّاه محاولةً لابتزازهما.

هاتفت أبي على الفور وعاتبته لعدم إبلاغي بالحادث يوم وقوعه، فقال إنه تعمّد ذلك لئلا يسبب لي ذعراً، وطمأنني بأن جرح أخي زهير في ذراعه، وقد تماثل للشفاء وعرض المكتب للبيع، ويفكّر الآن في عمل آخر لا مجال فيه لمشاكل طائفية. لكني بقيت قلقاً بعد انتهاء المكالمة إلى أن سمعت صوت زهير ملعلعاً، عابثاً كعادته، وكأنه أصيب بلكمة لا برصاصة. وبدلاً من أن يحدثني عن إصابته روى لي أحدث نكتة سمعها قائلاً: «كان أحدهم يحشّش على ضفة نهر دجلة بعد الغروب، فمرّ من جانبه سكيران نشب جدال بينهما حول أيهما أحقّ بالخلافة: عمر أم علي؟ فصاح أحدهما فرحاً: لنحتكم إلى هذا الرجل، وسأله: أيهما أحقّ بالخلافة: عمر أم علي؟ أجاب الحشاش: والله لا أعرف لأني لم أشارك في الانتخابات».

آيجون

2008

كانت تستولي على ميران، بين حين وآخر، نوبات حزن غريبة، وتضيق روحه عندما تستيقظ فيه صور الماضي وكأن العالم مقبل على الفناء. لكنني رغم محاولته إخفاءها عني كنت أتحسّسها وألمسها في ملامح وجهه، وضحكته، ونظراته الهائمة، وأسلوبه في الكلام، وحتى في بعض قصائده.

قبل أيام اشتريت له مجموعة أصص زهور، ووضعتها في شرفة غرفته وطلبت منه أن يرشّها كل صباح بالماء لتتضوّع برائحة منعشة للنفس، وكنت قد عرضت عليه مرات عديدةً مراجعة طبيب نفسي لكنه كان يرفض. أخيراً قررت أن أستدرجه بنفسي إلى كشف ما وراء ذلك. حملته، وهو شبه ثمل، على أن يحدّثني عن طفولته، فقال إنها طفولة شقيّة إلى درجة فظيعة. ولدته أمّه ملاك في السجن، كان ذلك حين تعرّض أبوه إلى ملاحقة رجال الأمن في السنة الثانية للحرب بين العراق وإيران بسبب انتمائه إلى الحزب الشيوعي، ولما عجزوا عن الإمساك به اعتقلوا أمّه، وهي

حامل به في شهرها الثامن، ليرغموه على تسليم نفسه. إلاّ أن أباه ظل متخفياً أربع سنوات خشية أن يرسلوه إلى الإعدام في حال تسليم نفسه. وهكذا ولد ميران ونشأ بين جدران السجن، دون ألعاب، دون أطفال، لا يرى الشمس سوى ساعات قليلة في اليوم، وأحياناً أقل من ساعة، وباتت الحياة في عينيه ضرباً من فضاء مغلق ضيق، تغشاه الظلمة أغلب الوقت، ويكسر هدوء ليله أحياناً أزيز طائرات حربية.

كان كلام ميران، وهو يروي ما بقي عالقاً في ذاكرته من تلك الأيام، سيلاً متدفقاً لا كابح له، مثقلاً بالأسى. حدثني عن النساء السجينات مع أمه، قال إن صور بعضهن لا تفارقه، نساء في أعمار مختلفة: شابات، متوسطات في العمر، عجائز يمكثن مدةً قصيرةً ثم يغادرن بلا رجعة. منهن من كانت تبكي كثيراً، وأخرى تثرثر باستمرار، وأخرى لا تنبس بكلمة وكأنها لا تمتلك لساناً. لا يعرف إن كنّ جميعهن سجينات لأسباب سياسية أو لأسباب أخرى.

بعدما أُفرج عن أمّه التقى ميران، أول مرة، جدّته سمهر وأخاه سبهان، الذي تكفّلت الجَدّة برعايته طوال غياب والديه، فنشأت بينهما مودة على وجه السرعة. أما أبوه فلم تتيسّر له رؤيته إلاّ بعد مضي عدة أشهر على خروج أمّه من السجن، فقد وضعوه، حين سلّم نفسه، في معتقل خاص أسفل مبنى دائرة الأمن، ولم يطلقوا سراحه إلاّ بعد إرغامه على كتابة تعهد بالتبرّؤ من الحزب وقطع علاقته نهائياً بالشيوعيين، والالتحاق إلى الجيش الشعبي.

عندما رآه ميران أول مرة أحسّ بنفور منه، عدّه كائناً غريباً يحاول ضمه إلى صدره وتقبيله، فأفلت نفسه من بين يديه وهرع إلى أمّه مستاءً. احتاج إلى وقت طويل كي يقبل بوجوده في البيت، دون طيب خاطر، كارهاً شركته في حقّه بأمّه، كاتماً في داخله غيرةً وحزناً موجعاً من إبدائها زينتها ومحاسنها له. ولم يتورّع عن مراقبتهما كلما اختليا في حجرة النوم. وحين كان يطول الأمر بهما يلمّ به صراع نفسي يفضي إلى إحساس بالوحدة والانفصال وكأنه سيفقد أمه إلى الأبد.

ظلت هذه الأحاسيس ملازمةً لميران حتى دخوله المدرسة في سن السادسة، ثم تلاشت عنه، وصار يميل إلى والده بعاطفة حب قوية ويفخر به، غير أن الحزن لم يفارقه، بل صاحبه مثل ظله.

عشية رأس السنة الميلادية أعددنا أنا وأمي حفلةً صغيرةً في بيتنا، حضرها ميران ويوسف وصديقته أيهان وجارنا الأرمل وابنته الشابة كرستين، التي تربطني بها علاقة صداقة منذ الطفولة. كان يُفترض أن يشاركنا سامان وزوجته أيضاً، لكنّه اعتذر عصر ذلك اليوم لسبب طارئ، كما قال، رغم أن ميران عزا اعتذاره إلى وجود يوسف في الحفلة.

كانت المفاجأة الكبيرة إحضار ميران أمه معه، إلى جانب أخته سولاف، دون أن يعلمني. أذهلني مجيئها إلى بيتنا في تلك الليلة تحديداً، وأخفت أمّي استياءها، أما سولاف فقد سبق لها أن اطّلعت على جانب من حياتنا. تساءلت في سري وأنا أصافحها «تُرى هل أقنعها ميران بعلاقتنا، أم أنه

صوّرها لها بأنها مجرد علاقة عادية؟». جاءت بزيّها المحتشم الشبيه بأزياء المسلمات اللواتي يترددن إلى مركز التجميل، تنورة طويلة تصل إلى كعبيها يغطيها معطف سميك، وحجاب يخفي شعرها. ثمة مسحة من الحزن في قسمات وجهها وسواد أسفل عينيها. لا تجيد إلاّ عبارات إنكليزيةً قليلةً تشوبها لكنة. أحسسنا أنا وأمّي وأيهان بحرج كبير منها، فقد كنا نرتدي فساتين سهرة تكشف أجزاءً من أجسادنا.

قلت لميران حين انفردت به في المطبخ:

ـ يا للفظاعة! ماذا فعلت؟

ردّ ببرود، متهلل الوجه:

ـ لا عليك، أرجو أن تتصرّفن بشكل طبيعي، أنا تعمدت إحضارها لأخرجها من قوقعتها.

ـ هل حدّثتها عن طبيعة علاقتنا؟

ـ ليس بشكل مباشر، وربما هذا ما دفعها إلى الحضور.

صمتُّ برهةً وقلت:

ـ إذن سأهتم بها كثيراً لعلها تغيّر رأيها وتبارك لنا.

ـ آمل أن يحدث ذلك، لكن...

لم يكمل ميران كلامه، كان يتأمل فستاني الأزرق بتركيز غريب، فظننت أنه معجب بفصاله. قلت:

ـ إنه جميل أليس كذلك؟

تردّد قليلاً، ثم قال:

ـ هل يمكن أن تستبدليه بفستان ذي لون آخر؟

استغربت:

ـ لماذا؟ إنه لون فاتن.

ـ أعرف، سأخبرك فيما بعد.

ذهبت إلى خزانة ملابسي على مضض، وارتديت فستاناً أبيض وعدت. أبديت طوال السهرة حذراً معقولاً أمام أنظار أم ميران، ووجدت نفسي مضطرةً إلى تجنب تناول المشروب علناً في الصالة، حيث كان ميران ويوسف وجارنا يشربون بأريحية مثل سلاطين لا رقيب عليهم، وأخذت أدلف إلى المطبخ بين حين وآخر لأستوفي جرعة نبيذ زهري، وتضامنت معي أمّي وأيهان وابنة جارنا ففعلن الشيء نفسه. عدا ذلك أمضيت معظم الوقت في مجاملتها والترحيب بها وتقديم الطعام والحلوى لها، فكانت تبتسم لي وترفع يدها محيّيةً تعبيراً عن امتنانها، وحيثما أرادت أن تقول شيئاً تستعين بسولاف لترجمة كلامها.

بدا لي ليلتها أنها شعرت بالرضا عني، ذلك ما فهمته من سولاف حين ترجمت قولها بأني لطيفة وكريمة وحلوة المعشر، لكنها باغتتني بعد انتهاء الحفلة بسؤال نطقته بصوت هامس كأنه لا يُسمع:

ـ Are you still a virgin? (هل مازلتِ عذراء؟).

لفظت كلمة Virgin بنبر مبهم يصعب معه فهم معناها، لكني فهمت قصدها حالاً، فأصبت بالذهول والإهانه وكأنها صفعتني على وجهي، وأدركت أن سولاف هي من ترجم السؤال لها إلى الإنكليزية قبل أن تنطق به. بذلت كل ما بوسعي لكي أبدو في حال طبيعية، وأومأت برأسي أن نعم، فربتت على كتفي وقالت مبتهجةً:

ـ Good girl

لم ينتبه أحد إلى ما دار بيني وبينها في ثوانٍ، فقد كانوا كلهم منشغلين بتوديع بعضهم بعضاً، والدعاء إلى الرّب أن يحقق أحلامهم وأمنياتهم في العام الجديد. ورغم أنني انضممت إليهم بعد قليل فقد ظل ذلك السؤال ينغل في داخلي، وانتظرت وصول ميران إلى البيت لأكلمه حول الموضوع، فتفاجأ أيضاً واستحسن ردّي على أمّه، وطلب مني ألاّ أغضب منها قائلاً إن حالها حال أي امرأة متشدّدة دينياً تعتبر العذرية شأنا عظيماً. قلت:

ـ ولماذا شكّكت فيّ؟

لاذ بالصمت لحظات ثم تنهد وقال:

ـ إنها تشكّ في وجود أي فتاة غربية تحتفظ ببكارتها وسط مجتمع تعتقد بأنه منحل.

ـ ما كان عليها إذن أن تأتي لتعيش في مجتمع كهذا.

ـ يبدو أنك لا تزالين غاضبةً؟

ـ لست غاضبةً، بل مستغربةً جداً ممّن يلجأون إلى الغرب بحثاً عن

الأمان والراحة وهم يعتبرونه منحلاً. في عملي صادفت أيضاً بعض النساء على شاكلة أمّك. ما هذا الانفصام؟

شاطرني ميران الرأي، فسألته عن حكاية فستاني الأزرق، قال:

ـ المسألة لا تتعلق بي وإنما بها.

ـ هل تكره أمك اللون الأزرق؟!

ـ في معتقداتنا المتوارثة يُعدّ مكروهاً، وبعض النساء والرجال لا يتخذه لباساً.

ـ يا للعجب! إنه لون الفضاء والبحر ورمز الوفاء والسلام والهدوء.

ـ أعرف، لكنّ كلمة الأزرق في الموروث المندائي تعني الفناء والهلاك، فإذا لبس أحدهم لباساً بهذا اللون كأنّه يطلب الفناء لمن ينظر إليه.

ـ معتقدات غريبة بالفعل.

أيهان

2008

لم تتقبّل أمّي علاقتي بيوسف في بداية الأمر، كانت تعتقد بأن تكرار الارتباط بشخص عربي حماقة يجب أن أتجنبها. ظلت غاضبةً مني، رافضةً التعرّف إليه مدةً تزيد على ثلاثة أشهر، وفي أحد الأيام استطعت أن أطوّعها فقبلت دعوته إلى مطعم «ريمسيون». هناك أفلح في كسب ودّها حينما حدّثها عن السنوات التي قضاها في سوريا مع أسرته، وعلاقته الحميمة ببعض أصدقائه التركمان في الجامعة، وبعضهم من حمص. واستأنست له أكثر عندما روى لها حكاية تيمورلنك مع الحمامصة.

لا بدّ أن أعترف بأن ما رويته ليوسف عن زواجي بثري عربي لم يكن دقيقاً، لأنني في الحقيقة لم أرتبط به بزواج رسمي موثّق، وإنما بزواج عرفي طوال الأشهر الخمسة التي قضاها في كندا. كان زواجاً تافهاً، وكنت أعرف ذلك قبل أن أقدم عليه، لكني رضيت به على مضض بسبب حاجة أسرتي إلى المال، ورأيت أنه أفضل من أن أستمر راقصة ستربتيز.

جرت مراسيم ذلك الزواج على نحو عادي جداً، كتب ورقةً بنسختين أقرّ فيها بأنني زوجته أمام الله، وشهد عليها اثنان من أصحابه. ثم سافر إلى أهله، ومن هناك بعث لي ورقةً أنبأني فيها بانفصاله عني. هكذا بمنتهى البساطة!

لقد اعتبرت تلك الرواية كذبةً بيضاء كي لا يتحسّس يوسف، رغم أنني تيقّنت فيما بعد من أنه كان سيستقبل الرواية الحقيقية على نحو مختلف عما فكّرت فيه، فهو رجل صافي القلب، منفتح الذهن، متسامح جداً، ومنسجم عملياً مع الأفكار التي يحملها.

منذ ذلك اللقاء لم يتطرّق يوسف إلى الموضوع ثانيةً، تعمّد نسيانه، وطواه مثل أي صفحة من الماضي، ويوماً بعد يوم ازداد تمسكاً بي، وراح يؤجّج عاطفة الحب التي غرسها في قلبي، مقتنعاً بأن قدره هو الذي ساقني إليه. أوصل هذه القناعة إلى أهله في بغداد وأخته ندى في فلندا، فأبدت الأخيرة سعادتها بعلاقتنا، وسألته أن يرسل لها صورتي، وأثناء تبادل الرسائل الإلكترونية بيني وبينها، أو دردشاتنا بالماسنجر، جمعتنا صداقة نادرة عن بعد وكأننا نعرف بعضنا منذ مدة طويلة.

حين انتقلتُ إلى شقته صبّ اهتمامه على إكمال دراستي الجامعية، وتطوير قدرتي على القراءة والكتابة باللغة العربية. وقد أسهمت في ذلك أيضاً العزيزة تيريزا مقابل مساعدتي لها في حل بعض واجباتها المدرسية. أما هو فلم يفلح للأسف في الحصول على مقعد في برنامج الماجستير بسبب

صعوبة معادلة شهادته، فعقد العزم على إصدار جريدة أسبوعية بالعربية، إضافةً إلى عمله مراسلاً صحفياً. فتنتني الفكرة مذ فاتحني بها، وشجّعته كثيراً على تنفيذها، إلاّ أنه كان قلقاً، في الوقت نفسه، من أن يضطر بعد مدة إلى جعلها جريدةً تلهث وراء إعلانات هزيلة لتغطية تكاليف طباعتها وتوزيعها، ولذلك صرف النظر عنها.

تزوجنا رسمياً في السنة التالية بإلحاح من أمّي. أقامت لنا في بيتها حفلةً صغيرةً أثناء العطلة الصيفية حضرها ميران وآينور وبعض الأصدقاء، وجاءت تيريزا وأفرام من «وينزر» وأقاما في أوتاوا ثلاثة أيام. اكتفينا بأسبوع عسل بدلاً من شهر، قضيناه في مونتريال. بعدئذ قرّر يوسف إصدار جريدة إلكترونية بعنوان «أمواج»، ورأى إنْ كان لا بدّ من احتوائها على إعلانات تسدّد كلفة الاشتراك السنوي للموقع فلا بأس أن تكون ذات طابع معقول.

كان ميران أول المتحمّسين للمشروع، واقترح على يوسف أن يخصّص فيها صفحات للثقافة، تتضمن في كل عدد ملفاً عن جنس إبداعي في الأدب والفن، ولم يفته بطبيعة الحال أن يطلب منه تخصيص الملف الأول للشعر السوريالي، وكأن القرّاء جميعهم مثله مغرمون بالصور التعبيرية المفارقة للعقل والمنطق! فأجابه يوسف بأن ملفاً كهذا لن يكون مناسباً للعدد الأول، ومن الأفضل أن يخصّصه لموضوع يمس حياة الناس كثيراً وهو «الثقافة في مواجهة التطرّف والإرهاب»، مذكّراً إياه بمأساته هو.

ورغم اقتناع ميران بذلك فقد كتب للملف قصيدةً بعنوان «أبو نؤاس يكره الميليشيات»، لا تخلو من نفحة سوريالية وحس تهكمي، على غير عادته في كتابة قصائد يستبطنها الحزن، ووضع لها مقدمةً قال فيها: «حلمت قبل أيام أن بضعة ميليشياويين أنذال أهانوا الشاعر أبي نؤاس بإحاطة تمثاله القائم على شاطئ نهر دجلة بكومة نفايات، وأزالوا بيته الشعري المنقوش على قاعدته، وخطّوا محله عبارةً تقول «الشعراء يتبعهم الغاوون ويهدّم تماثيلهم المؤمنون»، وحين صحوت كتبت هذه القصيدة».

أهتم يوسف بالقصيدة كثيراً ونشر معها صورةً لتمثال أبي نؤاس، فحظيت بإعجاب العديد من القرّاء، وعدّها آخرون، هم في الحقيقة قلّة، كلاماً فارغاً لا طائل منه، وكتب أحدهم قائلاً «إن صاحب القصيدة غاوٍ يمجّد شاعراً فاحشاً، لعنة الله عليه»! أما أغرب تعليق فقد أرسله شخص من بغداد قال فيه «كيف نصدّق شويعراً ينطلق من أضغاث أحلام؟ إن الذين يسميهم بـ«الميليشياويين الأنذال» هم مقاتلون نبلاء مثل الساموراي والفرسان».

أثار التعليق حفيضة ميران فردّ عليه بكلام قاسٍ، لكن يوسف كان له رأي آخر، قال له «يُستحسن أن تتجاهله، أنت عبّرت عن رؤيتك وأُعجب بها كثيرون، ولا يضيرك إن خالفك واحد أو اثنان»، فاقتنع ميران بذلك الرأي وجنّب نفسه المماحكة مع أناس صغار.

كنت قد سمعت، عرضاً، بالشاعر أبي نؤاس، لكن يجب أن اعترف

بأنني لم أقرأ شيئاً له أو عن سيرته، لذلك دفعني الفضول إلى البحث عما مكتوب عنه بالإنكليزية، فوجدت العديد من قصائده المترجمة والمقالات التي تتناول قصائده وسيرته، التي تؤكد أنه شاعر استثنائي كان ضد التيار، ويمتاز بإدراك سابق لأوانه، ودخل عالم العظماء، ليس بشعره فقط، بل أيضاً بسبب سلوكه غير التقليدي في الحياة.

أفرد يوسف في العدد الثاني من الجريدة ملفاً بعنوان «خطر فقدان التنوّع في العراق» نشر فيه مقالات عن أهمية تعزيز التعدّدية، واستثمار التنوّع الخلّاق في المجتمع العراقي، وتعرّض أقلياته إلى الاضطهاد على يد الجماعات الإرهابية المسلّحة، وهجرتها المتواصلة إلى الخارج. كان ذلك الملف فرصةً رائعةً لنشر قصص أصدقائه، التي سبق أن كتبوها لمسابقة المدرسة، بعد أن تولى ترجمتها إلى العربية بنفسه. وكتب ميران مقالةً مؤثّرةً عن ابن خالته الطيار الذي اغتالته ميليشيا موالية لإيران، استحضر فيها ذكرياته معه قبل الغزو الأمريكي للعراق، وكيف كان يعرض عليه قصائده فيستلطف منها ما تستسيغها ذائقته وينتقد ما تبدو له طلاسم غير قابلة للهضم.

وجد يوسف أن من المناسب أيضاً استثمار افتتاحية العدد لفضح استخدام واضعي دستور البلد مصطلح «مكوّنات» ليصفوا العراق، مؤكداً أنهم يرتكبون جريمةً كبيرةً لأنهم يؤسسون لبناء دولة مؤلفة من مجرّد «جماعات»، وليس من «مجتمع». كان رأيه أن ذلك المصطلح ينفي

وجود «مواطن فرد» يُنظر إليه بوصفه حاملاً للحقوق، ويعتبره مجرّد رقم أعمى وغبي في هوية «مكوّن»! وقد انهالت عليه عشرات التعليقات التي تؤيده في كون هذا الدستور «ملغوماً» لم يرتفع إلى مستوى تخيّل وطن جامع مانع.

من نيويورك شارك في العدد نفسه أحد أصدقاء يوسف بمقالة عرض فيها كتاب «حياة الغطرسة في المدينة الزمرّدية» للمدير السابق لصحيفة الواشنطن بوست في بغداد راجيف شاندرا سكاران، الذي يصف فيه الحياة في المنطقة الخضراء ببغداد بُعيد الغزو الأمريكي للعراق. ومن جملة ما كشف عنه سكاران في الكتاب:

ـ المنطقة الخضراء تزكم الأنوف..

ـ القصر الجمهوري، عنوان سيادة العراق، تحوّل إلى مواخير حمراء للمجون والفساد الأخلاقي..

ـ جميع المواد الغذائية التي تُستهلك يجب أن تكون أمريكيةً.. وحتى الماء الذي تُسلق فيه النقانق، مستورد من بلدان موثوقة..

ـ على أحد المداخل الثلاثة للقصر وُضعت لوحة إعلانات احتوت على مجموعة نماذج منها: «دروس في التوراة: الأربعاء السابعة مساءً»، «هل أنت مجهد نفسياً؟ زرنا في مستوصف الإجهاد النفسي بسبب الحرب».

اقترحتُ على يوسف أن يخصص في الأعداد التالية بضع صفحات بالإنكليزية للأخبار المهمة عن العراق، كي يطّلع عليها اللاجئون

العراقيون الذين لا يجيدون القراءة بالعربية، فاقتنع بالاقتراح وكلّفني بإعدادها. تحتّم عليّ طبعاً أن أقرأ عشرات الأخبار، ولم أكن أتصور أنني سأقع على أخبار بتلك الفضاعة: «تفجير جسر الصرّافية الحديدي في بغداد»، «تفجير يدمّر مئذنتي ضريح الإمامين العسكريين في سامراء»، «إنفجار ثلاث شاحنات محملة بغاز الكلور السام في منطقتي الفلوجة والأنبار يسفر عنها جرح المئات وتسمّم العشرات». كان أكثر الأخبار إيلاماً خبر يقول «الأمم المتحدة تكشف عن مقتل أكثر من 34 ألف مدني عراقي خلال العنف الطائفي الذي حدث عام 2006، ويزيد هذا العدد عما أعلنته الحكومة العراقية بثلاث مرات». وقد عجزت عن تصور مقدار الفواجع التي طالت أُسَر هذا العدد المهول من الضحايا. أنا وأسرتي فجعنا بموت أبي فقط، فكيف بمن فقد ثلاثة أو أربعة في يوم واحد؟

ميران

2009

قبل أيام من وفاتها في الشتاء الماضي، أوصتني أمّي بأن أرسل جثمانها، إذا جاء أجلها، إلى العراق لدفنها جنب أبي وأخي في المقبرة المندائية. تمنيت لو أني أستطيع تنفيذ وصيتها، لكنّ الأمر كان معقداً جداً، فاضطررنا إلى دفنها في المقبرة المخصّصة للمندائيين في أوتاوا بطقوس مخفّفة اقتضاها واقع الحال والطقس المثلج.

في البداية أنّبتني سولاف على تقاعسي، إلاّ أنني أقنعتها بأن دفنها هنا سيسهل عليها زيارة قبرها متى ما تشاء، فتقبّلت الإجراء على مضض.

كانت قد انقضت حوالي السنتين منذ إصابتها بالمرض، وصارت سولاف مؤهلةً للدخول إلى الجامعة بعدما أدّينا امتحان الحصول على الجنسية. فترتْ رغبتها في أن تكون مصممة أزياء، وقررت أن تتخصص في علم النفس. تحوّلٌ غريب من الظاهر إلى الباطن!

انتظرتُ بعدئذ ثلاثة أشهر حتى أتزوج آيجون زواجاً مدنياً. تركتْ

بيت أسرتها وانتقلت إلى شقتي. كان ذلك، كما يبدو، فألاً حسنا لها، فقد حالفها الحظ في العثور على عمل في قناة تلفزيونية بوظيفة مساعدة مخرج مسلسلات درامية. أحبت العمل كثيراً، وتمكّنت بشطارتها من إتاحة فرص لأمّها آيسل في تمثيل أدوار شبه رئيسية مع ممثلات وممثلين نجوم. لكنّ ما أزعجني في عملها أنها كانت تغيب أحياناً عن البيت أسبوعاً كاملاً، تبيت في أماكن نائية خلال تصوير بعض المشاهد الخارجية، مرةً في «أدمنتون»، وأخرى في «فكتوريا»، وثالثة في «ريجينا».

عندما كانت ترافقها أمّها إلى تلك الأماكن لتصوير مشاهدها كنت ألجأ، أنا وسولاف، إلى الإقامة الجبرية في بيتها مع ولديها المراهقين تاركان وآبتين، أو أضطر إلى أخذهما إلى شقتي، والتبرع بسريري لهما ليناما عليه وأتدبّر أمري في صالة المعيشة. كان ذلك يفاقم حزني دون شك، خاصةً أنه صار يسبب ضيقاً لسولاف، وأخذت تتذمّر وتندب حظها على وفاة أمّها. في بعض الأيام كانت تغلق باب غرفتها على نفسها بعد عودتها من المدرسة، وتهاتفني وأنا في العمل لتبثّ لي شكواها مختنقةً بعبراتها الجارحة.

«ماذا أفعل أمام المعضلة؟» تساءلت مع نفسي مرات عديدةً دون أن أتوصل إلى نتيجة. كنت آمل أن ترعاها أم آيجون إذا ما ماتت أمّي، لكن الأدوار انقلبت، أمست سولاف هي التي ترعى ولديها في غيابها، مضحيةً براحتها ووقتها، تطبخ وتغسل وتتحمّل أعباء البيت الأخرى رغم انشغالها بواجباتها المدرسية! «ما الحل إذن؟».

في فورة غضبها واجهتني ذات يوم قائلةً:

ـ أنا لست خادمةً لولدي حماتك، إما أن تطلّق ابنتها أو تجد لهما خادمةً ترعاهما في بيتها.

أدركت أنها محقةً تماماً، فحاولت أن أهدئ من روعها:

ـ اطمئني، سأجد حلاً مناسباً.

اتصلت بآيجون على الفور وشرحت لها المعضلة. كنت أعتقد بأنها ستتأسف وتقترح عليّ حلاً ما، لكنها استقبلت الأمر ببرود أدهشني. بعد أيام عادت إلى أوتاوا رفقة أمّها. كانت مستاءةً جداً وفظة المشاعر تجاهي كأنني ارتكبت إثماً لا يُغتفر، فتوترت علاقتنا وغادرت إلى منزل أهلها. بدت ردّة فعلها غير طبيعية تماماً، شعرت بتغيّر ما أصابها، لا أعرف كنهه. تركتها أسبوعاً كاملاً دون أن أتصل بها. في اليوم الثامن بادرت هي إلى الاتصال بي لتصدمني بقولها:

ـ أرجو أن تعتبر علاقتنا منتهيةً.

أخفيت دهشتي وسألتها:

ـ هل أستطيع أن أعرف لماذا؟

ـ لأنك فضّلت أختك علينا.

ـ لم أفضّلها، بل راعيت حالتها النفسية.

ـ اهتم بها إذن ولا تفكّر في آيجون.

ـ أعتقد بأنك تضمرين سبباً آخر لإنهاء علاقتنا.

ـ فسّر الأمر كما تشاء، وداعاً.

اظلمّت الدنيا في عينيّ بعد انفصالي عن آيجون، واستغرقني التفكير أياماً طويلةً في السبب الحقيقي لتغيرها المفاجئ واتخاذها ذلك القرار العجيب، وبقيت تائهاً في مسالك الشكّ والحيرة التي تغلي مراجلها في نفسي، «لماذا فعلت ذلك؟ ألم أغدق عليها من المحبة ما يملأ كيانها غبطةً؟»ـ «هل نشأت علاقة بينها وبين شخص ما في العمل؟»، «كيف يكون الحب قابلاً للطي بهذه السهولة؟ أهو صفحة في كتاب نملّها فنقفز إلى صفحة أخرى؟».

أخيراً استقرّ رأيي أن استدرج أخويها واستجوبهما لعلهما على دراية بالأمر، خاصةً أنهما يودّاني كثيراً. غادرت عملي ذات يوم وقت خروجهما من المدرسة، وانتظرتهما أمام البوابة، لكني حظيت بالكبير تاركان فقط، أما الصغير فقد لزم فراشه في البيت بسبب نزلة برد دهمته. أخذته إلى مطعم للوجبات السريعة، واشتريت له سندويتشة همبرغر بالجبن ففرح بها، وبينما كان يلتهمها، وهو جالس جنبي في السيارة، سألته عن أخبار آيجون، فأفلت معلومةً كنت أنتظرها بفارغ الصبر:

ـ إنها مستمتعة جداً في العمل مع صديقها المخرج راشمان.

ـ صديقها؟ هل هذا الكلام لها أم من استنتاجك؟

ـ هي قالت ذلك.

ـ أرأيت راشمان هذا؟ كم تقدّر عمره؟

ـ زارنا في البيت مرتين، إنه أكبر منك بكثير.

تذكرت أن آيجون قالت لي عندما حدثتني عنه أول مرة إنه في سني. سألت آبتين:

ـ هل هو أفضل مني؟

قال:

ـ لا طبعاً، إنه فضولي وثرثار ويتعاطى الحشيشة.

ـ الحشيشة! كيف عرفت؟

ـ سمعته يقول لآيجون آتني بعلبة الحشيشة.

ـ هل تعرف معنى الحشيشة؟

ـ علّمونا في المدرسة أنها نوع من المخدّرات ينبغي تجنبها.

ـ وهل شاركته آيجون في تعاطيها؟

ـ ليس هي فقط، أمّي أيضاً.

ـ اللعنة! وكيف تدبّران أنت وأخوك أموركما عندما تبقيان وحدكما في البيت؟

أجاب:

ـ أمّي لم تعد تتركنا وحدنا.

ـ هكذا! هل تركت العمل؟

ـ لا، صارت تعمل هنا فقط، وتعود كل يوم إلى البيت.

ـ هل أنت راضٍ عن انفصال آيجون عني؟

ازدرد آخر لقمة وقال:

ـ لم أكن أتوقع ذلك، أنا أحبك كما تعرف.

ـ أليس ما فعلته خيانةً؟

أطرق رأسه دون أن ينبس بكلمة، فأدركت بالحدس أنه شعر بالحزن. ثم ران علينا صمت مطبق فيما تبقى من المسافة التي تفصلنا عن البيت، فأحسست أثناءه بانكسار شديد، وأخذت تجول في رأسي تساؤلات حارقة «لماذا باعتني آيجون وارتبطت بآخر يكبرني بعشرين عاماً؟ هل كانت تستثير غيرتي حينما كذبت عليّ قائلةً إن ذلك المخرج في سنّي»؟.

حين بلغت بتاركان إلى مدخل الشارع المؤدي إلى البيت طلبت منه ألاّ يخبر أحداً من أهله بلقائنا، فهزّ رأسه موافقاً وودعني ومضى مسرعاً.

لم أستطع العودة إلى العمل. كنت مهموماً ومتضايقاً، وفاقداً القدرة على ممارسة أي نشاط، فاتصلت بالجواهرجي وأخبرته بأنني متعب وسأذهب إلى البيت. كان ذهني مشتعلاً بالرغبة في معرفة حقيقة ذلك المخرج الحقير. عندما وصلت إلى البيت رحت أبحث عنه على الفور في «غوغل»، فوجدت في الموسوعة الحرة أن «عمره أربعة وخمسين عاماً، ينحدر من أصول هنغارية، ومولود في بودابست لأبوين فرّا إلى كندا، إثر فشل الانتفاضة التي شاركا فيها ضد الحكم الشيوعي عام 1956، وهو

متزوج ومنفصل أربع مرات آخرها عام 2008!».

غرست تلك المعلومة في داخلي، أول الأمر، كرهاً شديداً للرجل، لكنني بمرور الأيام أخرجته من رأسي، وتوصلت إلى قناعة بأن الصدفة التي عرّفتني على آيجون يمكن أن تعرّفني على أفضل منها. «ستكون هي الخاسرة بالتأكيد، وعليّ أن أقول للحزن وداعاً».

يوسف

2009

منذ بداية علاقة آيجون بميران أحسست بأنها لن تدوم طويلاً. ترسّخ هذا الإحساس في داخلي حين التقيت أم آيجون أول مرة. وقتها اكتشفت أنها امرأة جشعة، لا تنتهي نفسها عن شيء طمعاً وشرهاً، وتتشوّف إلى المكاسب بأي وسيلة. لمست ذلك في تعابيرها التي تضمر نزوعاً غريباً إلى الاستئثار والاستحواذ في علاقتها بالآخرين، وفي تعظيمها للنساء اللواتي يمتلكن موهبة ابتزاز الرجال!

ترسّخت قناعتي بدناءتها عندما احتفلنا برأس السنة في بيتها قبل سنتين. يومها طلبت مني، وهي تدعوني إلى الحفلة، أن أجلب معي زجاجتي ويسكي وفودكا. استغربت من جشعها، خاصةً أن المدعوين الآخرين كانوا أيضاً سيجلبون معهم مشروبات كحوليةً، وأن زجاجتين اثنتين ستسدان حاجة الجميع. وافقت على تلبية طلبها دون مناقشة، واشتريت لتر ويسكي «غرانتس» ولتر فودكا كندية اسمها «آيسبيرج»،

وعدداً من علب البيرة، لكنها بدلاً من أن تشكرني فاجأتني بعدم رضاها عن نوعية الكحول التي اشتريتها. همستْ بذلك في أذني، بعد أن وضعتْ زجاجة الويسكي على المائدة لصق زجاجة كونياك لا أدري مَن جلبها، بينما أخفت الفودكا في المطبخ!

كل ذلك جعلني على ثقة تامّة بأن آيسل هي التي أقنعت آيجون بالانفصال عن ميران، ولا محيد من وجود مصلحة وراء فعلتها. وتذكّرت أيضاً أنها هي التي فرضت سطوتها عليها ودفعتها إلى الإجهاض لغاية في نفسها. بيد أنني لم أرغب في محادثة صديقي حول تلك الأمور كي لا أرشّ ملحاً على جرحه، بل سعيت إلى تضميده بإيجاد حل ناجع يجعله ينسى الوجع الذي ألمّ به، فشجّعته على الارتباط فوراً بفتاة أخرى تملأ حياته، وأيّدتني أيهان في ذلك، ثم فاجأتني أثناء أمسية بيتية حميمة برغبتها في تعريفه إلى أختها لورين، قائلةً إنها ليست على علاقة بأي شاب ومتحررة مثلها، ولن يحول الفارق الديني بينهما دون موافقتها إذا اقتنعت به.

في تلك الأمسية، التي خصصناها للاحتفال بحصولي على الجنسية الكندية، كنا بصحبة زجاجة نبيذ «ميرلوت»، وشمعة معطّرة، وألحان إسبانية ذات لمسة عربية أرسلها لي بالبريد الإلكتروني صديق حمصي مقيم في مدريد.

قبل أن نبدأ الاحتفال نقلت لأيهان، ونحن في المطبخ، خبر مغادرة آخر فرقة قتالية أمريكية من العراق بعد سبع سنين من الغزو، فعلّقت قائلةً:

ـ حبيبي، خروج هؤلاء السفلة من البلد بعد أن حطّموه لن يحقق له السيادة.

ـ أنت محقّة، ستمعن وحوش الداخل والجوار في تمزيق أشلائه.

ـ قلبي على أهلك في بغداد.

ـ قلبي أنا على كل العراق.

ـ ما أوسع قلبك حبيبي.

أثارني شكل البطة المشوية الموضوعة على المائدة، فتغزلت بها قائلاً:

ـ إنها شهية ومثيرة للخيال الإيروسي.

قالت:

ـ كل ما يُطهى لمحبوب هو شهواني، لكنه أكثر شهوانيةً حين يشارك في تحضيره الإثنان.

سألتها:

ـ من أين جئت بهذه الحكمة البديعة؟

قالت:

ـ قرأتها في كتاب لإزابيل أللليندي.

صببت كأسين من النبيذ وقلت:

ـ كم أحب كتابات هذه التشيلية الرائعة، سبق أن قرأت لها روايتين. ما اسم الكتاب؟

ـ أفروديت.

قالت، ثم اضافت:

ـ إنه كتاب ممتع جداً، ما رأيك أن أكتب عنه مقالةً للعدد القادم؟

ـ فكرة جيدة.

ـ أرادت إزابيل أن تخرج فيه عن الأسلوب المألوف للرواية فكتبت عن الحب والطعام، وأهدته إلى العشاق اللعوبين والرجال المذعورين والنساء الحزانى.

ـ شوّقتني لقراءته، فلنشرب نخب هذه اليسارية المثيرة.

ـ ماذا تقصد بالمثيرة؟ أنا أغار.

ـ لا حبيبتي، أقصد ما قالته عن نفسها ذات مرة، قالت إنها تفضّل أن تعيش حياةً مثيرةً.

ـ إذا كان الأمر كذلك فلنشرب نخبها.

قرعنا كأساً بكأس واشتففناهما بتلذذ، ثم عاودنا الحديث عن ميران ولورين، فقالت أيهان إن أفضل ما أستطيع القيام به هو دعوة الطرفين إلى سهرة في أحد المراقص، لكن يجب أولاً إيجاد مناسبة لها كي لا يبدو الأمر مدبّراً. أخذ كل منا يرنو إلى كأسه ويفكّر في المناسبة. كان عيد ميلادي سيحلّ بعد ثلاثة أشهر وعيد ميلادها أبعد من ذلك، أما عيد ميلاد ميران فلم نكن نعرف موعده، وفجأةً خطر في بال أيهان أن عيد الفلنتاين على الأبواب، فقلت:

ـ لقد غلبتني. هل ذكّرك به دم العنقود؟

ـ دم العنقود؟!

ـ إنه من مرادفات النبيذ عند أجدادنا، ويسمونه أيضاً ابنة الكرْم وابنة العنقود..

ـ لو أن إيزابيل سمعت به لضمّته إلى أفرودياتها. إنها تسميه روح الآلهة وعزاء الفانين لقدرته على إبعاد الهموم عنّا، ومنحِنا رؤى الجنة.

ـ ما أروعها، أما شاعرنا المتنبي فيقول محللاً شربه:

كلّ شيء من الدّماء حرامٌ شربه ما خلا ابنة العنقود

وقد توصلت دراسة جديدة إلى أن مركب ريسفراترول الموجود فيه ينفع الجسم كما تنفعه التمارين البدنية، فهو يحسّن عمل القلب وقوة العضلات، ويطيل العمر.

ـ لكن شكسبير يذم الإفراط في تناوله لأنه رغم إثارته للشهوة يقضي على الأداء.

ـ نصف زجاجة بالنسبة لي ترفع الأداء.. نخب شكسبير والمتنبي.

قرعنا كأسينا قرعةً خفيفةً وجرعنا ما تبقى فيهما، ثم سألتها:

ـ ما رأيك أن أطلب من ميران مراقصة لورين في الحفلة؟

ـ نبدأ أنا وأنت أولاً كي يتشجّع ويدعوها للرقص.

ـ ذلك ما سنفعله، رغم أن ميران جريء بطبعه ولا يحتاج إلى تشجيع.

تدفّق وجهها بالبِشر وقالت:

ـ حبيبي، مضت مدة طويلة على آخر مرة رقصنا فيها.

ـ أنت محقّة، كان ذلك في الخريف الماضي.

ـ قبل أربعة أشهر في حفلة زواج صديقتي كارين.

أخذت يديها المسترخيتين على طرف المنضدة بين يدي وقلت:

ـ مدة طويلة بالفعل. ما رأيك أن ترقصي لي الآن رقصةً أفروديتيةً؟

خفضت بصرها كعصفور جريح، وظلت صامتةً. أمسكتها من معصمها وابتسمت، فرشقتني بنظرة ذات مغزى، ظنّاً منها أنني أقصد شيئاً لا يسرّها. تداركت الموقف بسرعة ونهضت من مقعدي وأحطت صدرها بذراعَيّ وطبعت قبلةً على وجنتها وقلت:

ـ حبيبتي، إنها رغبة آنية فقط وآسف إذا كان فيها حرج.

ـ لا بأس، أنت الليلة منتعش وسألبي لك هذه الرغبة ما دامت أفروديةً خالصةً.

آيجون

2010

ما إن انقضت مدة قصيرة على انفصالي عن ميران حتى أدركت مدى الحماقة التي ارتكبتها. يا لي من مغفّلة، أضعت إنساناً نادراً أحبّني بكل جوارحه، وملأ كياني دفئاً ومعنى قبل الزواج وبعده، وكنت قبل ارتباطي به قد مررت بتجربة فاشلة في الجامعة مع شخص أخذ مني مبتغاه ثم دار أعقابه وتركني.

تبّاً لي، لماذا لم أتعظ؟ ألم يجدر بي أن أحتكم إلى عقلي بدلاً من الانسياق وراء خدعة؟

لقد استجبت لإغواء راشمان بتشجيع من أمّي أثناء تصوير المشاهد الخارجية لأحد المسلسلات في «فكتوريا». ظلت أياماً طويلةً توسوس لي أنْ لا طائل من الاستمرار في زواج فاشل من رجل يعمل أجيراً في محل للمجوهرات، ويكتب أشعاراً مضحكةً، وأنّ راشمان هو البلسم الذي سنحرز به على حياة أفضل ألف مرة من حياة الكفاف التي نعيشها.

لكن الذنب الأكبر أنا التي تتحمّله، كنت أعرف أن ميران يحبني حباً صادقاً، ولم أشكّ في إخلاصه يوماً ما. لِمَ تناسيت أنني كنت أيضاً أعمل أجيرةً مثله؟ وماذا أنا الآن؟ لا تزال وظيفتي مساعدة مخرج أتقاضى مرتّباً عادياً، وربما سأبقى هكذا إلى سنوات قادمة.

ليتني متّ قبل أن أصغي إلى وسوسات أمي. سامحها الله على سلوكها الوصولي، قبضتْ ثمن دفعي إلى خيانة حبيبي وزوجي بحصولها على وظيفة إدارية في القناة وتخلّيها عن التمثيل، بينما لم أحصد أنا سوى المهانة.

لقد باعني راشمان وعداً كاذباً بالزواج، وترقيتي إلى مخرجة في أقرب فرصة، فضعفت ومنحته جسدي ليطفئ فيه غريزته، رغم أنه يكبرني بثلاثين سنة، وفجأةً أخذ يتهرّب مني بعد انتهاء المسلسل الذي جمعني به. لم يعد النذل يرد حتى على مكالماتي التلفونية. منذ أسابيع بدأ يصوّر مسلسلاً جديداً في تورنتو دون علمي، واختار مساعد مخرج آخر.

ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ اتصلت بشخص أثق به يعمل فني إضاءة معه فطلب مني أن أنساه وامتنع عن ذكر السبب، وحين ألححت عليه ووعدته بأن أكتم السر قال لي:

ـ أنا أشفق عليك يا آيجون.

سألته:

ـ لماذا؟

قال:

ـ لأنك ورّطت نفسك بعلاقة معه.

ـ ماذا تعرف عنه؟

ـ أنا أعمل معه منذ سبع سنوات وأعرف كل شيء.

ـ حسناً؟

ـ في كل مسلسل يخرجه يصطاد أجمل العاملات فيه، ويخدعها بكلام معسول، وحين يشبع منها يتركها إلى واحدة أخرى.

ـ يا لحقارته! من هي فريسته الجديدة؟

ـ ممثلة شابة أسند لها دوراً صغيراً في المسلسل.

ـ هل لي أن أعرف اسمها؟

ـ أنابيل غونزاليس، خلاسيّة مهاجرة من المكسيك.

ما أغباني! لِمَ وثقتُ براشمان بلا روية؟ أما كان يجب أن أرتاب منه وهو يناديني «يا ملاكي الصغير» أمام العاملين في المسلسل؟ لكن عبثاً ألوم نفسي الآن بعد كل ما جرى. كنت في حيرة من أمري، ما العذر الذي عليّ أن أرميه في وجه ميران لأنهاء علاقتي به؟

في طريق عودتنا إلى أوتاوا عبّأت أمي رأسي بأفكار سخيفة، وحرّضتني على اختلاق مشكلة معه بحجة تذمّره من رعاية أخويّ أثناء وجودنا في فكتوريا، وعندما نفّذتُ تحريضها وتركته غاضبةً صبّت مزيداً من الزيت على النار بحملي على طلب الانفصال عنه، فاستجبت لها كالبلهاء.

أربع سنوات مرّت على بدء علاقتي بميران، عشت أثناءها أحلى فترات عمري. لم نختلف إلاّ في مواقف قليلة عندما كانت أمّه لا تزال حيةً، ثم انصهرنا بعد رحيلها في إلفة عميقة، وصرنا نتدبّر أمورنا بوفاء ونزوات صغيرة أحياناً لنتقاسم الحياة، ونرسم خططاً طموحةً لمستقبل زاه نحلم به. أما علاقتي بأخته سولاف فقد كانت حميمةً، رغم تعصّبها لمعتقداتها الدينية. محضتها رعايتي وحناني كما لو كانت أختي الصغيرة، ولم أبخل عليها يوماً في شراء ما تحتاج إليه من مستلزمات خاصة تخجل تكليف ميران بها. وتجنّبتُ أن أتدخل فيما تؤمن به. شجّعتها أول الأمر على اهتمامها بالموضة ورغبتها في أن تكون مصمّمة أزياء، وحين غيّرت اهتمامها وقررت التخصص في علم النفس وقفت إلى جانبها، وعارضتُ ميران في انزعاجه من تقلّب أهوائها. وكانت هي بالمقابل تحترمني وتصغي إلى نصائحي.

حلمت أمس أنني في قطار يتأهب للانطلاق من محطة أوتاوا إلى بلدة «أوديسا» شمال غرب «كنغستون». كان الوقت صباحاً في يوم شتائي مضبّب شديد البرودة، ولا أدري لماذا خرجت من البيت بلا هدف واتجهت إلى تلك المحطة، ولا لماذا كنت ذاهبةً إلى تلك البلدة البعيدة وكأنني في رحلة تيه مثل أوديسيوس. سألت نفسي «من ينتظرني هناك؟ أوديسيوس كانت تنتظره زوجته الوفية بنيلوب في إيثاكا، أما أنا فلا أحد. سأهيم على وجهي كأي منبوذة، وربما سأقع فريسةً في قبضة الساحرة

تسيرس فتمسخني إلى خنزيرة، ولن ينقذني من شرورها لا مبعوث الأولمب هرمس ولا زرادشت. وهل تنقذ الآلهة أو رسلها خائنةً مثلي؟».

كنت أتطلع خلل زجاج نافذة القطار إلى الناس في المحطة، رأيت فتياتٍ يتأبطن عشاقهن، وأطفالاً يجرجرون ألعابهم وهم يسرعون لأخذ أماكنهم في القطار، فحسدتّهم لأن كل واحد منهم يعرف أنه ذاهب إلى منزل سيأويه في مدينة أو بلدة ما بين أوتاوا وأقصى الجنوب. فجأةً لمحتُ من بعيد ميران تحت عمود النور ماسكاً بذراع فتاة ترتدي ملابس بيضاء وتحمل باقة ورد..

ـ هل كان ميران بالفعل أم أنني تخيلته؟.

خفق قلبي واضطربت، نهضت من مقعدي بسرعة ودفعت السيدة التي كانت تجلس جنبي ونزلت إلى الرصيف، تطلّعت إلى الجهة التي لمحت فيها ميران وفتاته فلم أر شيئاً بسبب كثافة الضباب، وحتى بقعة الضوء التي كانت مسلّطة عليهما لا أثر لها. حاولت أن أركض صوبهما فلم أستطع، خذلتني قدماي، شعرت أنهما كحجر ثقيل لا يتزحزح، وسمعت صوت القطار وهو يهدر مغادراً المحطة. مرّ من جانبي بطيئاً أول الأمر مثل سفينة منساقة مع الريح، ثم انطلق مسرعاً كحيوان أسطوري، وفي ثوان قليلة ابتلعه الضباب كما لو أنه دخل في نفق مظلم. تعالت خلف ظهري قهقهات حادة تصمّ الآذان ممزوجةً بأصوات إطلاقات نارية اقشعرّ لها بدني. لم أعرف كيف أنجو منها، فجثوت على ركبتيّ، ورفعت

أطراف معطفي وغطيت رأسي، وأغمضت عينيّ مرتعدةً، بينما كانت أسناني تصطك.

أستيقظت فزعةً على صوت الهاتف، كانت تيريزا على الخط، والساعة تشير إلى التاسعة صباحاً. ظننت أنني تأخرت عن الذهاب إلى العمل، لكنني تذكرت أن اليوم كان سبتاً. بدت تيريزا منزعجةً جداً من انفصالي عن ميران، وأخذت تكلمني بقسوة. لم أجد عذراً مقنعاً أردّ به عليها، فظللت أصغي إليها وهي تمتدح ميران وتفصّل في خصاله الحميدة ومقدار محبته وإخلاصه لي، وتذكّرني بتفانيه من أجلي، وبالأيام الجميلة التي قضيتها معه. وحين اعترفت لها في الأخير بأنني نادمة حثّتني على الاتصال به والاعتذار عما فعلته، لعله يغفر لي فتعود علاقتنا إلى سابق عهدها. وعدتها بأنني سأحاول ذلك، رغم يقيني باستحالة إصلاح ما انكسر بعد أن عرف ميران سبب انفصالي عنه.

ودعتني تيريزا، متمنيةً لي النجاح في محاولتي، فانتابني حزن ثقيل، وأخذت أجيل النظر في أرجاء الغرفة، ممزقة الروح، مشوّشة الذهن، تغمرني هواجس شتى: «هل أرتمس في نهر ريدو لأتطهّر من نجاستي؟ هل أشعل ناراً وأكوي بها جسدي؟ هل أجلد نفسي بمخالب معدنية ليتصفّد دمي الفاسد؟». بقيت على تلك الحال حوالي ربع ساعة، نهضت بعدها من السرير، وأزحت ستارة النافذة، ووقفت أمام المرآة. تفرست في وجهي فبدا لي أشبه بوجه عاهرة رخيصة، رأيته معتماً وكأنني أراه من خلل

زجاج مغشّى بالبخار، ودهمني شعور رهيب بالغثيان، ثم أغمضت عينيّ وبصقت على صورتي وقلت «لقد فات أوان الندم».

أيهان

2009

عندما تركت العمل في النادي الليلي قطعت عهداً على نفسي ألاّ أعود إلى ما يذكّرني به ثانيةً. كنت قد اضطررت إلى ممارسة التعري المهين لسدّ حاجات العيش، لكني في احدى سهراتي الحميمة مع يوسف حنثت عهدي تلبيةً لرغبته الجامحة.

تحدثنا في تلك السهرة عن أشياء كثيرة، بدأناها بالسياسة وانتهينا إلى الجنس، عن ترتيب علاقة بين صديقنا ميران وأختي لورين، وعن النبيذ والكاتبة الشيلية إيزابيل ألليندي وشكسبير والمتنبي، وعن اشتياقي إلى رقصة حميمة معه، فتملّكه الإلهام فجأةً وطلب مني أداء عرض ستربتيز له! شعرت باضطراب كبير حاولت أن أخفيه عنه، لكنه عندما طمأنني بأنه لا يقصد أمراً سيئاً نفذت رغبته، بعد لحظات من التردد.

لا أكتمكم أنني تعمّدتُ ألاّ أقدّم العرض بمهارة، ولم أنتزع كل ما يغطي الأجزاء الشهوانية من جسدي، لئلا يذهب به مخياله إلى صورتي

في النادي وأنا أستعرض معالم جسدي أمام ثلة من رجال شبقين، فتغشاه أحاسيس وهواجس مؤلمة.

أظنني نجحت في ذلك لأن كل ما قرأته في وجهه، وهو يتطلع إليّ، كان تلذّذاً طاغياً مجرّداً من أية هواجس، وسرعان ما استثير، وسحبني إلى غرفة النوم برغبة ملتهبة ونال مبتغاه سعيداً، مبتهج القلب، بأداء نادر وتنويعات مذهلة، كأنه ينام معي أول مرة.

اعتاد يوسف أن يدلّلني كثيراً، وأنا أدلله بالمقابل. ليلتها وعدني بأن يصطحبني في الصيف القادم إلى فلندا، حيث تقيم أخته ندى. كان قد حصل على الجنسية توّاً، وأراد أن تكون أول رحلة له خارج كندا إلى ذلك البلد الاسكندنافي ذي آلاف البحيرات والجزر. سرّتني الفكرة كثيراً، وتلهفت لرؤية قرص الشمس في منتصف الليل هناك.

حين أبلغتُ ندى بالأمر، في اليوم التالي، تملكتها فرحة شديدة، وقالت إنه يوم السعد بالنسبة لها، وستعدّ لنا برنامجاً سياحياً حافلاً بالمتعة في أرجاء هلسنكي ابنة بحر البلطيق، ومعالمها الشهيرة والمدن المجاورة لها. وحدثتني بإسهاب عن المتحف الوطني الذي يحتوي على مجموعة كبيرة من النقود العربية القديمة.

خطر في بالي أن ترافقنا في الرحلة أختي لورين وميران، فقررت أن أوثّق علاقتهما. لم أنتظر حفلة الفلنتاين لكي يتعرّفا على بعضهما، بل رتّبت لهما لقاءً في البيت دون علم يوسف. أردت أن أجسّ نبض لورين أولاً،

فطلبت منها أن تزورني لتساعدني في أمر ما، ثم اتصلت بميران وأخبرته بأنني أضعت حلقة الزواج التي قدّمها لي يوسف، وأريد واحدةً مثلها تماماً، فجلبها بعد نصف ساعة، وأوصيته بأن يكتم الأمر عن يوسف لئلا يحرجني. انطلت اللعبة عليهما، وتعارفا بسرعة، ودخلا في حوار متشعّب، بينما رحت أشغل نفسي بين حين وآخر في أداء بعض الأعمال البيتية المفتعلة.

كان الوقت ظهراً فافترضت أن عليّ أن أعد طعام الغداء (كان ذلك طبعاً جزءاً من خطتي)، فتركتهما وحدهما مع موسيقى رومانسية ومكثت في المطبخ مدةً تزيد على الساعة، أطللت عليهما أثناءها مرتين، وتبادلت معهما أحاديث قصيرةً من باب إبعاد الشبهة، وحين انتهيت من إعداد الغداء عدت إليهما فإذا بتيار من الود قد سرى بينهما.

بعد مغادرة ميران إلى عمله قالت لي لورين إنها ارتاحت له كثيراً، فتنفّستُ الصعداء وشجعتها على التواصل معه.

هل تصرّفتُ بحكمة أم بدهاء؟

قبل حلول موعد الفلنتاين بيومين وجّه يوسف دعوةً لميران لحضور الحفلة، وأخبره بأن شابةً لطيفةً سترافقنا، دون أن يذكر له أنها أختي، ويسعده أن يتعرّف إليها، فربما تنشأ بينهما علاقة غرامية تعوّضه عن آيجون، في حين فعل العكس مع لورين، أخبرها بأنه سيسطحب صديقاً عزيزاً اسمه ميران، وهو شاعر متنور وشديد الحسّاسية، ويسرّه أن تتعرّف

إليه وتراقصه إذا راق لها، فرحّبت بالدعوة وقبلتها. وأغلب الظن أن كليهما حبس ضحكةً في داخله وهو يستمع إليه. أما أنا فكنت مضطرّةً إلى المضي في حَبْك لعبتي حتى النهاية: أوصيت ميران ولورين أن يتظاهرا أمام يوسف بأنهما لا يعرفان بعضهما من قبل، وإلاّ سيكتشف موضوع ضياع حلقة الزواج وتحدث فضيحة، فاستحسنا الوصية ونفذاها بطيب خاطر!

قلت ليوسف ونحن نباشر أول رقصة:

ـ لا تبرح الحلبة بسرعة حتى لو شعرت بالتعب.

أحاط خصري بذراعيه وقال:

ـ ألهذه الدرجة أنت متلهّفة للرقص؟

ـ لدي سبب آخر.

لم يفهم يوسف ما أرمي إليه، فأرسلت بصري إلى لورين وميران وقلت:

ـ حينما ينفردان تكون فرصة تقاربهما أكبر. اختلسْ نظرةً سريعةً إليهما، إنهما يتحدثان بحرية.

ـ هل تعلمت هذا من إزابيل أللليندي أيضاً؟

ـ لا حبيبي، إنها مسألة بديهية.

ـ لقد بدا لي ميران مسروراً جداً.

ـ كذلك لورين. أسرّتني ونحن في الحمام بأنها سعيدة، ولمست من طريقة كلامها عنه أنها معجبة به.

ـ بهذه السرعة؟ لم أكن أتوقع.

ـ أليس هذا أفضل؟

ـ بلى، هذا ما كنا نتمناه.

ـ أنا واثقة من أنهما سيخرجان صديقين ممتازين مثل.. لا أدري مثل ماذا.

ـ ربما مثلنا حين خرجنا من مطعم ريمسيون.

ـ لو تحابّا مثلنا لصارا أسعد زوجين.

بعدما رجعنا إلى طاولة الجلوس شجعت ميران على أخذ لورين إلى الحلبة. ورغم أنه اعتبر نفسه أقل موهبةً من يوسف في الرقص فقد سحبها من يدها واندّس بين حشد من الراقصين، وطفق يتمايل أمامها على أنغام موسيقى سريعة، وحينما صارت الفرقة تعزف موسيقى بطيئةً أحاط خصرها بذراعيه وشدّها إلى صدره، بينما شبكت هي كفيها على رقبته.

تصغرني لورين باثنتي عشرة سنة، وقد أسماها أبي على اسم الممثلة الأمريكية الجميلة لورين هيوتن، التي كان معجباً بأفلامها. وهي أجمل كثيراً من آينور، يحمل جسدها كل مواصفات الأنثى الرياضية، وفيها شبه كبير من أمي، باستثناء فارق واحد بينهما هو شكل عينيهما، فالأولى عيناها رماديتان، غائرتان قليلاً، أما الثانية فإن عينيها بنيتان، مستديرتان مثل

حبتي خوخ، تشعّان جاذبيةً. كما أنها ذكية، ذات شراهة في القراءة، تعشق الأدب الألماني وتعتبر مثلها الأعلى غونتر غراس، في حين أنني أميل إلى أدب أمريكا اللاتينية ومثلي الأعلى إيزابيل إللينديي، فضلاً عن شكسبير طبعاً.

إلى جانب القراءة تهيم لورين بالعطور، وتستدل على الكثير من أنواعها حين تشمّ روائحها. مرةً قالت لي، وهي تتحدث كأنها خبيرة، «أصبح بإمكان التكنولوجيا الحديثة وشركات صنع العطور إعادة إحياء رائحة زهرة نادرة، حتى عندما تكون الزهرة قد انقرضت منذ مئات السنين»!

توطّدت علاقة لورين بميران إثر تلك الحفلة، وصارا يلتقيان كلما سمح لهما وقتهما. لم تكن تعرف عن ديانته شيئاً، فأعطاها نتفاً من المعلومات عنها، ودفعها فضولها إلى استقصائها في الإنترنيت، وساهمت أخته سولاف في زيادة معرفتها بها. استساغت بتلقائية بعض مبادئها، وامتعضت من تعاليمها الصارمة، لكنها في الحالين لم تشعر بأن الاختلاف الديني بينهما يشكّل حاجزاً يحول دون ارتباطها به، خاصةً أن ميران غير ملتزم دينياً، رغم أن أمّي كان لها رأي آخر، فقد اشترطت أن يتحول إلى الإسلام عند الزواج. وذكّرتها بتحوّل أبي لأنه كان يحبّها.

ميران

2010

بعد غوصي في بحر الوحدة والحيرة شهرين كاملين، استعدتُ جزءاً كبيراً من صفائي النفسي بتعرّفي إلى لورين، وأصبح بوسع عقلي أن يفكّر، فهي مخلوقة ريّانة نقية نقاء أول الفجر، ومولعة بالتعبيرات المجازية التي اكتسبتها من قراءاتها المبكرة لأشعار وروايات غونتر غراس، رجل الاستعارات الذي استطاع أن يقشّر طبقات بصل هذا العالم.

لورين هذه، اليانعة المتوجة بالغار(*)، المكتنزة بأحلام يقظة شيقة، والساعية إلى أن تكون مترجمةً، هي التي جعلتني أحبه وأقتني بعض كتبه المترجمة إلى العربية. وقد تعلّقتُ به أكثر حينما قرأت قولته اللطيفة «تولد أي رواية من رحم قصيدة»، بل أكثر من ذلك هو مَن غيّر حساسيتي الشعرية، ودفعني إلى التخلي عن كتابة قصائد ضائعة في متاهات اللاشعور إلى قصائد

(*) معنى اسم لورين باللاتينية.

تستغور أسرار العالم بوجهيه المتناقضين: وجهه المفعم بالحب والفضائل الإنسانية، والآخر الممرّغ في وحل الدسائس والكراهية والعنف.

إثر سهرتنا الرائعة في عيد الفلنتاين مضيت في تشكيل علاقتي بلورين مثل نحات متمرّس، وحين ترسّخت في بضعة أشهر اعترتني رغبة جامحة في إرسال صورتها، وهي في حضني، لآيجون كي أثبت لها أن الحماقة التي ارتكبتها لم تسبّب لي هزيمةً أو انكساراً، بل على العكس هي الخسرى. أليس ذلك أفضل ما يمكنني أن أفعل لأغيضها وأُشعرها بالهوان؟

في غضون ذلك أيضاً حقّقت شيئاً من النجاح في حياتي المهنية، فقد وُفّقت في الحصول على وظيفة معلّم في مدرسة عربية تدرّ عليّ دخلاً شهرياً يعادل ضعف ما كنت أتقاضاه من الجواهرجي، ووفّرت لي متسعاً من الوقت للقراءة والكتابة وقضاء ساعات لذيذة مع لورين في العطلات الأسبوعية.

ذات يوم اتصلت بي تيريزا لتحثّني على قبول اعتذار آيجون عما بدر منها، قائلةً:

ـ لقد أخطأتْ. أمّها كانت السبب، وهي الآن تشعر بندم كبير، وتتمنى أن تسامحها. ولا تنسى أن الخطأ فعل إنساني والمسامحة فعل إلهي.

قلت لها:

ـ بالضبط، ما تطلبينه مني فعل إلهي بينما أنا إنسان. وحمداً لله أنها لم تنجب مني.

ـ المسامح كريم. كان أبي يقول إن السلام يمكن أن يُصنع بسرعة كالحرب.

ـ يمكن للمرء أن يتسامح مع خطأ وليس مع خيانة. لو أنها صفعتني على خدي الأيمن لأدرت لها خدي الأيسر.

ـ يسوع قال أيضاً مَن كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر.

ـ اعذريني تيريزا، هذه القصة مشكوك في صحتها.

ـ أنت تشكّك في الإنجيل بينما أنا مؤمنة به، وأرى أن يسوع أراد التوبة لتلك المرأة، فكل إنسان خاطئ يتخلص من خطيئته بالتوبة الصادقة، ويحصل على الغفران.

ـ إذا افترضنا صحة القصة هل كان سيغفر لها المسيح لو أنها زوجته؟

ـ أنت مندائي وتؤمن بيوحنا المعمدان، أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ يقول الإنجيل إنه كان يدعو الناس إلى المعموديّة بهدف التوبة إلى الله وطلب الغفران عن خطاياهم لأن ملكوت السموات اقترب.

ـ الخطيئة شيء والخيانة المتعمّدة شيء آخر، ولا أظن أن يوحنا كان يدعو إلى معموديّة نساء مثل آيجون.

ـ هل معنى ذلك أنك تؤيد جماعة طالبان في رجمهم للمرأة الآن؟

ـ لا أؤيدهم إطلاقاً، لكني أقصد أن الرجم كان مشرّعاً في اليهودية،

ويسوع أعلن في دعوته أنه ما جاء لينقض ناموس موسى، ولا يمكن أن يعطّله بترك تلك المرأة دون عقاب.

ـ ميران أنت تحاجج كي لا تغفر لآيجون، هل أذكّرك بما اعترفتَ به في قصتك التي كتبتها لمسابقة المدرسة؟ أعني علاقتك بابنة جاركم في بغداد.

ـ تلك لم تكن خيانةً، ولا أكتمك أن نصف القصة نتاج مخيّلتي.

قاطعتني سولاف، التي كانت تصغي إلى استرسالي في الحديث، طالبةً مني أن أحسم الأمر مع تيريزا، فقلت:

ـ مرة أخرى اعذريني تيرزا، الأمر انتهى، أنا الآن مرتبط بعلاقة مع فتاة دافئة وملهِمة.

ـ هذه حقيقة أم شطحة شعرية؟

ـ صدقيني حقيقة، إنها أفضل من آيجون التي صارت تتعاطى الحشيشة؟

ـ معقولة؟

ـ معقولة جداً، علّمها عشيقها التافه.

ـ يا يسوع!

ـ وهذا سبب آخر يمنعني من أن أغفر لها.

ـ لا أعرف ماذا أقول لك.

ـ قولي انسَها يا ميران وامضِ في حياتك الجديدة.

ـ هل صديقتك مندائية؟

ـ لا، مسلمة.

ـ كيف يوافق أهلها على زواجها منك؟

ـ نحن متفاهمان وسنجد حلّاً.

ـ لا أظن أنها ستتبع ديانتك، الأرجح أنك ستتحول إلى ديانتها.

ـ الله أعلم.

ـ هذا جواب مبهم.

ـ على أية حال سأدعوكما أنت وفادي إلى حفل الزواج.

ـ لكنك ستحرجنا مع آيجون إن لبّينا الدعوة.

ـ ما رأيك أن أدعوها هي أيضاً؟

ـ لقد أصبحت مشاكساً، أين ذهبت شاعريتك وإحساسك المرهف؟

ـ ما برحتا جزءاً من طبعي، وأتعامل بهما مع مَن يستحقهما.

ـ لا تكن قاسياً يا ميران.

ـ إن كانت هذه قسوةً فماذا تسمين ما فعلته آيجون؟

ـ في رأيي أنها ارتكبتْ خطأً عن غفلة وسوء تدبير، لكنها لا تزال تحبك.

ـ ليت الأمر كان كذلك. لا يا تيريزا، نحن مهما حاولنا أن نتخلى عن قيمنا التي نشأنا عليها نظل ملتصقين بها مثل التصاق الإظفر بالإصبع. ما فعلته آيجون كانت خيانةً جرى التخطيط لها بإحكام، وليست نزوةً عابرةً.

ـ هكذا إذن؟

ـ نعم، وأرجو أن تبليغيها بردّي، وتنقلي تحياتي لفادي.

أقلعت بعد تلك المكالمة عن رغبتي في إغاضة آيجون بشكل مباشر، فقد تكفّلت تيريزا بإطلاعها على علاقتي بلورين، وعزمي على الزواج منها. ولم أكن جاداً في نيّتي دعوتها إلى حفل عرسي، فلست مجنوناً كي أجلب ما يصدع رأسي، وقررت أيضاً أن أعفو تيريزا وفادي من حضور الحفل.

لم تكن العقبة الكبرى التي واجهتني أول الأمر في مشروع زواجي من لورين هي فقط عدم رغبتي في تغيير ديانتي، بل أيضاً أختي سولاف، التي ما برحت في رعايتي. بالتأكيد كان ذلك سيسبب شرخاً كبيراً في علاقتي بها.

فكّرت مليّاً في الأمر، وظلّ يشغلني إلى أن ناقشته في أمسية ربيعية دافئة مع يوسف وأيهان بحضور لورين. جرى ذلك في لقاء جمعنا أربعتنا في كازينو مطلة على نهر «ريدو»، على مقربة من المكان الذي التقيت فيه آيجون أول مرة. لم أخترها أنا طبعاً، بل كان يوسف هو الذي وقع اختياره عليها.

من حديقة الكازينو لاحت لي جزيرة «كليفورد ألين» جاثمةً على الماء كسفينة معطّلة، تلك الجزيرة التي لم تقع عليها عيناي منذ ثلاث سنوات، بعدما غير المندائيون مكان تعميدهم، وتذكّرت كيف بدت لي يومها، في غمرة انتشائي لصق آيجون، أشبه بسمكة عملاقة طافية على سطح الماء.

قلت لجلاّسي:

ـ أنتم تعرفون أنني عابر للديانات في علاقاتي مع جميع الناس، سواء مع مَن أحب أو مع أصدقائي ومعارفي، ولم تشكّل لي هويتي الدينية يوماً ما حاجزاً بيني وبين مَن يختلف عني في هذه الناحية. كنت متزوجاً كما تعلمون من امرأةً زرادشتيةً، رغم تحريم ديانتي لهذا الزواج، وبقي كل واحد منا على معتقده، لكنني الآن في محنة، أعني عاجز عن تخيّل نفسي في إهاب ديانة أخرى حتى لو بشكل صوري، أو أنني اتخذته من باب التضحية. أي شيء يُفرض على الإنسان قد يتقبّله مرغَماً، إلاّ أنه لن يؤمن به. لقد قُتل أبي وأخي على يد إسلاميين متطرّفين لإرغام بقية المندائيين على التحوّل إلى الإسلام، لكنهم لم يفلحوا في سلوكهم الإرهابي، كل ما نجحوا في تحقيقه هو دفع الآلاف منهم إلى مغادرة العراق. ليس هذا فقط بالنسبة لي، ثمة سبب آخر: ماذا سيحدث لأختي سولاف؟ أنتم لا تعلمون كم هي متعصّبة لإيمانها المندائي ومنغلقة عليه مثل محار، فهل من الحكمة أن أغيضها وهي كل ما تبقى من أسرتي المنكوبة؟ إنها ستظل في رعايتي إلى سنوات لا أعرف مداها، أعني إلى أن تتزوج رجلاً مندائياً».

وختمت كلامي قائلاً: «إنني أحتكم إلى آرائكم في حل المحنة».

قال يوسف:

ـ لا توجد محنة يا صديقي، إن مشروع زواجك من لورين مبكّر، فهي لاتزال في سنتها الجامعية ما قبل الأخيرة، وأختك سولاف أمامها ثلاث

سنوات كي تتخرّج، ومَن يدري، ربما سيتزوجها شاب مندائي وتستقل عنك، عندئذ ستكون أنت في حل من أمرها.

كانت نبرة يوسف مليئة بالتفاؤل، ثم واصل مؤكداً:

ـ لذلك أفضّل أن تعيشا الآن حياتكما بشكل طبيعي، وتنسجا سعادتكما بطريقتكما الخاصة.

وقالت أيهان إنها ستحاول إقناع أمّها بإلغاء شرطها، مراعاةً لمشاعر سولاف، لكنّ ذلك يحتاج إلى صبر. أما لورين نفسها فقد هزّت رأسها مثل حمامة، وقالت بصوت ناعم إنها تتفق تماماً مع رأي يوسف، وتفضّل أن تنهي تعليمها أولاً، ثم تحصل على وظيفة مناسبة وتواصل في الوقت نفسه دراستها العليا.

لم يطُل الحديث بيننا كثيراً، فقد استقرّ الجميع في الأخير، خلافاً لتوقعاتي، على ذلك الرأي الراجح، وهكذا تخففتُ مما كان يسبب لي أرقاً، وانزاح الهم عن صدري. استأذنت بعدئذ يوسف وأيهان، والتقطت حقيبتي الجلدية من الأرض وعلّقتها على كتفي، ثم مسكت يد لورين وأخذتها إلى المكان المطل على الجزيرة. مررنا بجانب المصطبة التي شهدت تعرّفي إلى آيجون، وانحدرنا صوب النهر.

فوجئت بشيء جديد لم يكن موجوداً قبل ثلاث سنوات: جسر خشبي يمتد إلى عمق بضعة أمتار في الماء ويرتفع قليلاً عن سطحه، «حسناً فعلوا بإنشائه»، قلت لنفسي، «إنه مكان مثالي للعشّاق». مشينا عليه وجلسنا

على طرف نهايته وتركنا سيقاننا تتدلى لتلامس أقدامنا الماء. كانت تنقصنا تلك الموسيقى الرومانسية التي سمعناها في بيت أيهان، لكننا عوضنا عنها بزقزقة طيور البجع الطافية على سطح الماء.

فتحت بعد برهة حقيبتي وأخرجت منها قنينةً معبأةً بكوكتيل الفودكا والأناناس، ورحنا نتناوب في احتسائها حتى أتينا عليها كلها في غضون نصف ساعة. سرى مفعول الكحول سريعاً إلى موطن أسرارنا فأنعشتنا وألهمتنا بإحساس مليء بالحرية والراحة، إحساس أبيقوري. التصقت بها أكثر وأحطت ظهرها بذراعي واستنشقت عطرها الشذي، فاستيقظت في داخلي رغبة جامحة في احتضانها وتذوّق حلاوة شفتيها. أدرت وجهها إليّ برفق وقبّلتها قبلةً نهمةً تراخى معها جسدها المشدود، ومنحتني نشوةً عظيمةً، بينما كان يصافحنا هواء الليل الرطيب، محمّلاً برائحة الماء والحشائش.

قالت لورين، حين تركنا الجسر إلى حافة النهر، إن الماء الجاري يستهويها كثيراً، وتفضّل العوم فيه على المسابح، فدفعني ذلك إلى إطلاعها على طقس التعميد الذي نمارسه في النهر. اندهشت وسُرّت به كثيراً:

ـ ما أروعه من طقس!

ـ ستحضرينه ذات يوم.

ـ بل أتمنى أن أمارسه، هل لديكم مناسبة قريبة؟

عبر إلى ذهني في تلك اللحظة موقف آيجون السلبي من هذا الطقس، وقلت:

ـ نعم، عيد التعميد الذهبي، ونسميه «دهفا ديمانا»، سيحلّ بعد عشرة أيام، وفيه يتعمّد الجميع صغاراً وكباراً.

ـ واو! إنه قريب جداً، ما معناه؟

ـ يقولون إنه يوم تعميد الملاك هيبل زيوا ثم آدم ثم يحيى.

ـ أمر مثير!

ـ حسب اعتقادهم يُعدّ طقساً طهرانياً ترتفع فيه نفوس المعمَّدين إلى العلا نقيةً بيضاء كلون ملابسهم.

ـ أظن أن فكرة النقاء هي أروع ما في هذا الطقس وليس بعده العقائدي.

ـ لهذا السبب بالتحديد أنا أحبه.

(تذكرت أن آيجون قالت لي يومها «أنت تتغزل بهذا الطقس وكأنك تكتب شعراً»، فأجبتها «لِمَ لا؟ في الشعر يكمن جوهر الطقس وروح الأسطورة»).

نظرت لورين بطرف عينها إلى ضوء برق في العتمة على الضفة الأخرى من النهر وقالت:

ـ أنتم إذن لستم عشّاق الماء فقط بل أبناءه أيضاً؟

ـ هذا تعبير مجازي رائع يصلح عنواناً لقصيدة أو رواية. نحن كذلك بالفعل لأن الماء بالنسبة لنا عصب الحياة وعموده الأساسي.

ـ هل يجب أن أرتدي مثلكم لباساً أبيض عندما أنزل إلى الماء؟

ـ نعم، شرط أساسي أن ترتدي ما نسميه بـ»الرستة». لكن دعيني أولاً استأذن رئيسة الجمعية.

ـ أتمنى ألاّ تعترض.

ـ لا أظن.

ـ ما رأيك أن أجرّبه قبل أن يأتي يوم التعميد؟ أقصد ننزل إلى الماء أنا وأنت فقط.

أثارتني الفكرة، فقلت:

ـ بلا رستة طبعاً.

ـ ننزل بالشورت كأننا نصطاد سمكاً.

ـ حسناً، يوم الأحد القادم.

من سوء حظنا انقلب الطقس يوم الأحد إلى طقس ماطر استمر من الفجر حتى منتصف الليل، فتخلينا عن فكرة الذهاب إلى النهر، واكتفينا بلقاء طويل في مطعم «ريمسيون». بدا لي المكان موحشاً جداً دون وجود تيريزا وأفرام ولا حتى أي عزف موسيقي، أما بالنسبة للورين فكان الأمر مختلفاً. احتسينا بضع زجاجات بيرة، وعقدنا العزم على أن نكون أكثر تبصّراً، ونصنع سعادتنا باتباع إرادة الحياة، كما نريدها نحن الاثنين، حياةً يصقلها الهوى وشغف أحدنا بالآخر، ولا تكدّر صفاءها عثرات المعتقدات وتقاطعاتها.

بمرور الوقت اكتشفنا أن ذلك ليس عسيراً علينا، وتوصّلنا إلى قناعة مشتركة بأن الحب لا دين له، وإذا ما قُيّض لنا أن ننجب طفلاً ذات يوم فسنحرص على تهميش دور المعتقدات الدينية في تنشئته، ونترك له حرية اعتناق ما يشاء حين يكبر.

2016 /4/10